بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 21 أكتوبر 2019

هيكل الرسائل المحمّدية
هندسة الرسالة المحمّدية

الساسي بن محمّد الضيفاوي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

هيكل الرسائل المحمّدية/ هندسة الرسالة المحمّدية[1]

1- يمثّل هذا العمل الفصل الأوّل من الباب الثاني من كتاب "التراسل بين النبيّ محمّد ومعاصريه"، تأليف: الساسي بن محمّد الضيفاوي - منشورات مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، ط1، 2018، ص ص 149 - 192.

الملخّص:

مدار هذا الفصل على دراسة هيكل الرسالة المحمّديّة وهندستها. وقد بناه المؤلّف على محاولة الإجابة عن أسئلة مهمّة من قبيل كيفيّة تشكّل الرسائل المحمّديّة ودراسة صيغها ومكوّناتها النصّية (العتبة، المتن، الخاتمة)، فضلاً عن دراسة مسألة ختم الرسائل شكلاً ونوعاً والغاية المرجوّة منه.

لذلك اختصّ القسم الأوّل من هذا الفصل بتفحّص حجم الرسائل المحمّديّة، فبيّن المؤلّف صعوبة هذا المشغل، لأنّ كُتّاب السيرة نقلوا صيغاً شتّى للرسالة الواحدة وتعدّدت أقوالهم في إثبات حجمها (بسبب نقل جزء من الرسالة أو نقل الرسالة برُمّتها). وهنا قدّم المؤلّف قراءته في مقدّمات الرسائل أو ما يُسمّى في دراسات تحليل الخطاب بالعتبات. وتبيّن له أنّ من الوظائف التي تنهض بها هي الإعداد المعنوي والنفسي والذهني للمُرسَل إليه. ثمّ إنّ أسلوب كتابتها يتميّز بالسلاسة وبتواتر ملفوظات البسملة والسلم والسلام والحمد. ثمّ تدبّر الباحث متون الرسائل، فاتضح له من بين ما اتضح وجود تضارب في رواية الترسّل المحمّدي. ثمّ إنّ أسلوب النبيّ في كتابة الرسائل يتغيّر بتغيّر المُرسَل إليه (المعارِض السياسي/ المُوالي للعدوّ...). ومن ثمّ وُظّفت في الرسائل أساليب الإخبار (الإيجاز أو الإطناب) والتوكيد والشرط. ومثل هذه المباحث أحوجت إلى طرح السؤال التالي الذي ساقه المؤلّف دون أن يلتمس له جواباً: «هل خدمت هذه الاستعمالات اللغويّة الترسّل المحمّدي وأكسبته أبعاداً ذهنيّة وحضاريّة؟». ونظر صاحب الفصل بعد ذلك في خواتيم الرسائل المحمّديّة. إذ تبيّن أنّ أغلب مضامينها يدور على التحميد والتنويه بمزايا الإسلام على الناس كافّة والتنبيه إلى عواقب الانحراف عن الصراط المستقيم. ولاحظ المؤلّف تعدّد صيغ الخواتيم واختلافها باختلاف شخصيّات المُرسَل إليهم. وعرّج بعد ذلك على افتراق الدارسين، قدامى ومحدثين، في تعيين تواريخ كتابة الرسائل.

أمّا القسم الثاني من هذا الفصل، وهو دون القسم الأوّل حجماً، فقد خصّصه المؤلّف لمسألة ختم الرسائل، وهو بمثابة التوقيع عليها من النبيّ محمّد. وهنا ساق الباحث أخباراً تؤكّد استعمال النبيّ للخاتم، وفيها ما يفيد بمحتوى الختم (نصّ التوقيع)، ومن ثمّ كانت للخاتم المحمّدي دلالات شتّى: سياسيّة ودينيّة وتاريخيّة في آنٍ معاً.

مقدّمة الفصل:

لئن ذهب المؤرّخون إلى أنّ حركة التدوين قد تأخّرت نسبياً، فإنّ هذا لا يعني أنّ العرب والمسلمين لم يدوّنوا شيئاً قبل ابتداء حركة التدوين الكبرى في منتصف القرن الثاني للهجرة، باعتبار أنّ الكتابة كانت آليّة مفصليّة من آليّات التعبير جنباً إلى جنب مع التناقل الشفوي للمرويّات، ولعلّ الوثائق المكتوبة ومن بينها رسائل محمّد تُحيلنا على أنّ البحث في مسألة الترسّل ليست بالأمر الهيّن؛ بما أنّ أكثر هذه المكاتيب والرسائل النبويّة قد ضاعت وهو ما أدخل اضطراباً على عددها، وحجمها، ومتنها، غير أنّ الإخباريين حفظوا لنا جملة من المرويّات تُحيلنا على أصول هذه الكتابات وبنيتها.

ولا يفوتنا أن نشير في هذه التوطئة إلى أنّنا سنسعى في هذا الفصل إلى محاولة الإجابة عن جملة من الأسئلة الموصولة بالوثائق النبويّة، وهي:

ـ **أوّلاً:** كيف تشكّلت هذه الرسائل المحمّديّة؟ هل حجم هذه الرسائل وصياغتها واحد؟ هل نقتصر على عتباتها ومتنها وخاتمتها، أو هناك بعض العناصر الأخرى التي وجبت دراستها؟

ـ **ثانياً:** هل خُتمت هذه الرسائل؟ وإن كان ذلك كذلك، فما شكل هذا الختم وما نوعه، وما الغاية منه؟ وكيف ختم محمّد هذه الرسائل؟

إنّ إثارة هذه التساؤلات والسعي إلى محاولة الإجابة عنها، يعدّان في تقديرنا مدخلاً ضروريّاً لمراجعة هذه الرسائل وإعادة قراءتها، وإنّنا نرى أنّ هذه المراجعة ستُطلعنا على جملة من المعطيات الموصولة بحقل الترسّل.

I- حجم الرسائل المحمّديّة:

إنّ المقصود بالرسالة جملة المضامين والمفاهيم التي يرغب المرسل في إشراك المرسَل إليه فيها، والرسالة هي آليّة مهمّة من آليّات التواصل، وعنصر من عناصر الاتصال باعتبارها الإنتاج المادّي والروحي والنفسي للمرسِل، ورسائل محمّد هي عبارة عن مضامين تحثّ الناس على الدخول في الدّين الجديد بتأطيرهم واستمالة قلوبهم، والتأثير في عقولهم، فتشرح لهم نهج الدعوة الجديدة، ومرتكزات الإسلام وأدبيّاته، وأوامر الدّين ونواهيه، وقد عمد محمّد إلى أن ينزّل هذه المضامين بدءاً من خطاب المقدّمات في رسائله وعهوده، مروراً بمتونها، ووصولاً إلى خواتيمها.

والذي نفهمه من المرويّات الشفويّة والكتابيّة التي سبقت محمّداً يفيد أنّ الحديث عن حجم الرسائل لا يستقيم دون البحث في مختلف المفاصل التي تنخرط بصورة مباشرة في بنيتها، وهي عبارة عن تراكمات معرفيّة وطبقات نصّيّة تبدأ من المقدّمات وتفضي إلى متن مخصوص وتنتهي إلى خاتمة.

والملاحظ أنّ هذا الحجم موصول بالكثير من الاختلافات والتناقضات، فالبعض من المصادر التي دوّنت هذه المكاتيب قد يترك كلمة وأحياناً جملة أو جملتين أثناء الكلام أو التدوين، وقد نضبط بعض الاختلافات اللفظيّة والترتيبيّة وغيرهما، وقد نجد أيضاً في بعض هذه الرسائل تقديماً وتأخيراً في رواية بعض الكلمات، بل هناك بعض الرسائل التي لا تُذكر كاملة إلّا في بعض المصادر، وتكتفي المصادر الأخرى بذكر بعضها، وقد تعود هذه الاختلافات في تقديرنا إلى الرواية بالمعنى، أو إلى كتابة ما يريد الراوي وتغييب ما لا يريد.

ونظراً إلى أهمّيّة المقدّمات في الخطاب التراسلي، واعتبار أنّ خطاب البدايات يُعدّ مفصلاً من المفاصل المهمّة الذي يسهم في بناء حجم الرسائل النبويّة، عزمنا على دراسة موضوع المقدّمات في المكاتيب المحمّدية مع الاقتصار على نماذج معيّنة على وجه الذكر لا الحصر، نجلو من خلالها موقع البدايات في الكتابة المحمّديّة بنية ووظيفة.

1- قراءة في المقدّمات:

إنّ المقصود بمقدّمات الخطاب هو ما يمكن أن نعدّه عتبة على غرار الافتتاحيّة أو المقدّمة أو التوطئة أو الاستهلال أو التمهيد أو الإهداء أو الشكر أو البسملة أو الحمد، أو ما أطلق عليه حازم القرطاجنّي تسويماً، يعني به استفتاح الكتابات «**بهيئات تحسن بها مواقعها في النفوس، وتوقظ نشاطها لتلقي ما يتبعها ويتّصل بها**»[1]، **وقسْ على ذلك كلّ ما يمكن أن تكون به المراسلة رسالة في علاقتها ببنيتها ومضمونها، وهو ما يُترجم لنا بفضل كلّ هذه المؤشّرات أنّ «الافتتاح منطقة خطيرة في الخطاب، ابتداء الخطاب فعل عسير، إنّه الخروج من الصمت [...] فدراسة المفتتحات مهمّة جدّاً، وهذه الدراسة لم تحصل بعد**»[2]، على حدّ تعبير رولان بارت (ت 1980م) (Roland Barthes).

1- القرطاجنّي (حازم) منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة وتقديمه، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط3، 1986م، ص296.

2- بارت (رولان) التحليل النصّي، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق-سورية، ط1، 2009م، ص37. وتجدر الإشارة إلى أنّ رولان بارت أجرى تطبيقات على نصوص من العهد القديم والجديد والقصّة القصيرة، ومن جملة ما استخلصه أهمّيّة افتتاح الخطاب، فهو عبارة عن خروج من الصمت وبناء الجمل الأولى الافتتاحيّة، وهذا يستوجب مجموعة من الترتيبات والقواعد الكلاميّة والنفسيّة -وفق تقديرنا- التي يمكن أن نعثر عليها في التراث العربي والإسلامي شعراً ونثراً.

إنّ هذه الحقول الافتتاحيّة تهدف إلى إنتاج خطاب هو عبارة عن تمهيد يُخبر المتلقّي بهدف هذه المراسلة، والظروف التي كُتبت فيها، فتُعدّ هذه المقدّمات عتبة تحملنا إلى المتن، فخطاب المقدّمات يُحيل على مرجعيّة المرسل، وخلفياته، ومدى احترامه وتقديره، أو إهانته ونظرته الدونيّة إلى المرسَل إليه، وهو خطاب يشي بنوعيّة الاستراتيجيّة التي يروم المرسل أن يلتزم بها.

وبناءً على ما تقدّم، يمكننا أن نتساءل: هل قصد محمّد من وراء هذه التقديمات إعداداً معنويّاً ونفسيّاً وذهنيّاً للمرسل إليه، حتّى يستعدّ للعبور من فضاء ما قبل نصّ المراسلة إلى فضاء الرسالة، أو هو مجرّد خطاب تقديمي (Discours préfaciel)؟ إلى أيّ حدّ يمكن أن تعدّ هذه الكلمات المحدودة جدّاً في العدد في مراسلاته مقدّمات؟ هل يُحيل وجود هذا النمط من الكتابات حيناً، وغيابه أحياناً، على مدى احترام محمّد أو عدم اعتباره للمرسل إليهم؟

إنّ الناظر في هذه الأسئلة وغيرها يُدرك أهمّيّة هذه الرسائل، من حيث مقدّماتها ومتونها وخواتيمها، وأوّل ما يسترعي الانتباه في هذه المكاتيب هي عتباتها، وقد ارتأينا أن نتوقّف بمزيد من التفصيل والدّرس في شكلها ومضمونها.

قامت لغة المقدّمات في الرسائل المحمّديّة على أسلوب سلس، يتميّز بقصر الجُمل، ودقّة الفواصل، والميل إلى الإيجاز، وعدم التكلّف في إرسال العبارة، وقد وظّف محمّد كلّ ذلك في سبيل استقطاب الآخرين، خاصّة الذين لم يدخلوا بعدُ في الإسلام، لذلك نجده يخاطبهم بعبارة **السلام عليكم** وما تناسل من هذه العبارة من مفردات، وهو إقرار منه بأنّه أميل إلى السلم، خاصّة إذا علمنا أنّ رسائله وُجّهت إلى جهات مختلفة، بعضها إلى قبائل العرب ممّن دخل في الإسلام حديثاً، وبعضها إلى عمّاله، وبعضها إلى غير العرب من أهل الكتاب، ولكلّ جهة من هذه الجهات موضع خاصّ في أسلوب محمّد في رسائله، حتّى يكسب ودّ من خالفه على نحو قوله:

- «**سلم أنتم، فإنّي أحمد الله إليكم**»[3].

- «**سلم أنتم ما آمنتم**»[4].

- «**سلم أنت، فإنّي أحمد إليك الله الملك القدّوس**»[5].

3- مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، رسالة محمّد إلى عمير ذي مران، ص231.

4- المصدر نفسه، رسالة محمّد إلى الحارث ومسروح ونُعيم بن عبد كلال، ص219.

5- المصدر نفسه، رسالة محمّد إلى النجاشي، ص100.

- «**سلم أنت، فإنّي أحمد إليك الله**»[6].

- «**سلام عليكم، فإنّي أحمد إليكم الله**»[7].

إنّ ملفوظات السّلم، والسّلام، والحمد، المتواترة في مختلف هذه السياقات لم يقع إدراجها اعتباطيّاً، فقد يكون المراد بالسّلم مثلاً هو ما يسنّ بين الدول من اتفاقات صلحيّة قصد اجتناب الحروب والاعتداء، وقد يكون مرتبة من مراتب السّلام، وقد يكون مقصوداً لتحقيق أغراض أخرى مُغيّبة عن ذهن القارئ، أمّا السّلام، فمن الممكن أن يكون شكلاً من أشكال أداء التحيّة يُفيد سلامة المُسلّم والمُسلّم عليه، قصديته تسكين الخواطر وتطييب النفوس والضمائر، وقد تُحيل هذه الملفوظات على أنّ محمّداً، وإن كان أميل إلى لغة السّلم، فإنّه أردف السلام بخصلة ثانية هي الهدي، خاصّة إذا وجّهت الرسالة إلى من خالفه في الدّين والرأي والسياسة، إذ نراه يستهلّ في أكثر من رسالة بعدد من الجمل الاسميّة التي ترد منتظمة في أسلوب واحد يكون فيها الخبر تركيباً جارّاً ومجروراً على نحو:

- «**إلى هرقل، سلام على من اتّبع الهدى**»[8].

- «**إلى كسرى، سلام على من اتّبع الهدى**»[9].

- «**إلى المقوقس، سلام على من اتّبع الهدى**»[10].

والذي نستخلصه من هذه النماذج وغيرها، المتواترة في خطاب المقدّمات، أنّ الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، حيث يدخل في القاسم الإخباري المشترك بين المتكلّم والمخاطب، وقد ورد في هذه المضامين مقدّراً على نحو [قولي] «**سلام على من اتبع الهدى**»، فهو نصّ مقول القول مبتدأ، والخبر «**إلى هرقل**» وقد يُحيل المبتدأ على الدعاء واستمالة الآخر وشدّ انتباهه وإضافة معلومة جديدة.

أو قد يكون هذا التركيب من باب السلطة القوليّة، فمحمّد لا يملك سلطة دينيّة فقط، بل هو يملك كذلك سلطة لغويّة...

6- المصدر نفسه، رسالة محمّد إلى الهلال صاحب البحرين، ص156.

7- المصدر نفسه، رسالة محمّد إلى بني أسد، ص303.

8- المصدر نفسه، ص109.

9- المصدر نفسه، ص140.

10- المصدر نفسه، ص135.

وقد نفهم من هذا التركيب النحوي شيئاً من سلطة الخطاب نظراً إلى أنّ البدل يتبع المبدل منه قسراً، ولا يجوز أن يتقدّم عليه، وبذلك يجرّ هرقل إلى دائرة الهداية على الرغم عنه، ممّا يدلّ على أنّ الرسائل المحمّديّة تنهض على منطق الغزو بالكلام لا بالأفعال، أو ما يعبّر عنه اليوم في الدراسات اللسانيّة بالسلطة الخطابيّة، وهي غاية من غايات محمّد بغية محاصرة مخاطبيه شكلاً ومضموناً.

أو قد يكون المبتدأ أحياناً ضميراً والخبر مقصوداً لتحقيق مقصود أهمّ منه على غرار:

- «**إلى النجاشي، سلم أنت**»[11].

- «**إلى أهل هجر، سلم أنتم**»[12].

والذي نفهمه أنّ التعبير بالجمل الاسميّة قد تواتر في خطاب مقدّمات محمّد، ممّا يُحيل على توظيف أسلوب الدعاء، والاستقطاب، ومخاتلة الآخر ومحاولة استمالته، فيعرّف بنفسه وبرسالته وأهدافه بكلمات قريبة بسيطة، إلّا أنّه يبيّن من حين إلى آخر أنّه لا خيار لمن لم يتّبعه، ولم يطعه، ولم يدخل إلى الإسلام مقابل البقاء على الحكم، وإلّا فإنّ الملك زائل بقوّة خيول المسلمين وبحدّ سيوف أتباعه، على نحو رسالته إلى جيفر وعبد ابني الجُلندى ملكي عُمان: «**وإنّكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام، فإنّ ملككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على ملككما**»[13].

ويتبدّى ذكاء محمّد وخبرته في سبر أغوار الآخر وخاصّة المخالف له، من خلال احترامه للآخرين وتقدير دورهم وتأثيرهم وسلطتهم، وقد كان ذلك جليّاً منذ بدئه في رسائله، من خلال هذه الجمل القصيرة والمحدودة العدد التي أطلقنا عليها مقدّمات تجاوزاً، إذ خاطب زعماء الدول بما هم عليه من حظوة وتسلّط على أقوامهم، فخاطب المقوقس بعظيم القبط[14]، وخاطب هرقل بعظيم الرّوم[15]، وخاطب كسرى بعظيم فارس[16]، وقسْ على ذلك العديد من هذه الملفوظات التي تترجم أسلوباً ينمّ عن إقرار محمّد بسلطة هؤلاء ومركزهم؛ لذلك أثبت لكلّ واحد منهم لقبه الذي عُرف به، ممّا يدلّ على مدى دبلوماسيته وتلطّفه من أجل كسب ودّ الآخرين وإقامة علاقات مشتركة معهم، وهو يدلّ كذلك على نوع من الاعتراف من محمّد، وإقراره

11- المصدر نفسه، ص100.
12- المصدر نفسه، ص150.
13- المصدر نفسه، ص162.
14- المصدر نفسه، ص135.
15- المصدر نفسه، ص109.
16- المصدر نفسه، ص140.

بحقيقة قائمة في زمانه وجب أن يتعامل معها تعاملاً إيجابيّاً يتساوق والسّياق السياسي والدّيني والاجتماعي القائم في عهده، ولعلّ في مبعوثيه إلى مختلف الجهات والكيانات دليلاً على هذا الاعتراف.

نعتقد أنّ الرسائل المحمّدية قد تلوّنت، وخضعت لمؤثّرات المكان، والزمان، والثقافة، فانخرطت في الخطاب الأدبي، بما حوته من مضامين ونظم الدوال في عتباتها، فكانت هذه المراسلات تنوس بين أمرين اثنين: إمّا بالتوليد من القديم حتّى كأنّه جديد، وإمّا بالإضافة لما لم يكن سائداً.

لقد حاول محمّد أن يلتزم بجملة من الأدبيّات والمياسم الأخلاقيّة على غرار ما ذكرنا من ملفوظات رقيقة سمحة تترجم السلم والسلام والهداية والحمد في عتبات رسائله، لذلك أحسن الكلام فيما يستهلّ به حتّى يجذب إليه المرسل إليه ويشدّه إلى مضامين رسالته، فيختار الألفاظ السلسة نطقاً ودلالة وأسلوباً وجمالاً في التعبير، يبدأ بالبسملة، وإزجاء الحمد، ويفصل بين القول والقول بعبارة «**أمّا بعد**»، ويستدلّ على المرسِل، والمرسَل إليه، من خلال قوله: من محمّد رسول الله إلى فلان، وسنقف على تحليل هذه الملفوظات تباعاً.

لكن هل محمّد هو أوّل من قال «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وأوّل من كتبها؟ وهل الأمر نفسه ينسحب على بقية الملفوظات على غرار الحمد، وقوله: أمّا بعد، وكتابته من فلان إلى فلان؟

تشكّل جملة **بسم الله الرحمن الرحيم** أوّل نصّ تفتتح به رسائل محمّد[17]، ولبلاغة هذه الجملة على المستوى الدّيني والتواصلي، أضحت مفتتحاً مهيمناً على كلّ الخطابات، الشفويّة منها والمكتوبة في الثقافة العربيّة والإسلاميّة. وهذه الجملة على الرغم من إيجازها بليغة ذات مرجعيّة دينيّة، إذ اشتملت على أبرز الأصول الإسلاميّة، وقد وردت في مفتتح كلّ السور القرآنيّة باستثناء سورة التوبة، وقد عدّها البعض آية من القرآن.

لكنّ هذا لا يعني حكرها على النصّ القرآني، وأنّ أسبقيّة التلفّظ بها كانت لمحمّد، لأنّه ثبت تاريخيّاً أنّ هذا التقليد كان معروفاً في ظلّ الحضارات القديمة، فمن النصوص التي تبدأ باسم إله نذكر: «**شيع القوم، إلهي**»[18]، وتكمن أهميّة هذا النصّ على الرغم من قصره في بعده الدّيني الذي استهلّ به، ويذكر الأخباريّون

17- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، رسالته إلى المهاجر بن أبي أميّة ص247، وكذلك رسالته إلى خالد بن الوليد، ص85.

18- الدُّيب (سليمان بن عبد الرحمن) نقوش الحجر النبطيّة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنيّة، الرياض، ط1، 1998م، ص67، والإله شيع القوم، هو إله القوافل، كان أحد الآلهة المعبودة عند الأنباط.

والنسّابون أنّ قريشاً كانت تكتب: «**باسمك اللهمّ**»[19]، في كلّ مدوّناتها، وقيل: إنّ أميّة بن أبي الصلت الثقفي هو أوّل من استعمل هذه العبارة، بل علّم أهل مكّة كتابة ذلك في صدر الكتاب[20].

وقد ورد عن سعيد بن جُبير (ت 94هـ) أنّ أهل مكّة كانوا يدعون مسيلمة الرحمان، وقد ردّ القرشيّون على محمّد حين ذكر الرحمن: «**ما نعرف الرحمن إلّا رحمان اليمامة**»[21]، وخلاصة هذه الملاحظات أنّ محمّداً استثمر هذه التراكيب في رسائله، إلى أن نزلت عليه الآية {ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا} [هُود: 41]، وقتئذٍ أصبح يكتب: بسم الله، حتّى نزلت عليه آية {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} [الإسرَاء: 110]، فكتب: بسم الله الرحمن. ولمّا نزلت عليه آية: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النَّمل: 30]، كتب وقتئذٍ: بسم الله الرحمن الرحيم، وعدّ أبو هلال العسكري (ت 395هـ) ما جاء من ذلك منسوباً إلى محمّد لا غير[22].

ومهما يكن من أمر في ما يخصّ هذه الأسبقيّة، فإنّ السُّنّة الإسلاميّة والمرويّات التقليديّة تذهب إلى القول بأنّ أغلب مقدّمات الرسائل المحمّديّة تبدأ بقول: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وهذا لا يشذّ عن منهجه وطريقته في التعامل والحوار والجدل، ففي رواية عن أنس أنّ محمّداً قال: «**إذا كتبتم كتاباً فجوّدوا بسم الله الرحمن الرحيم تقضي لكم الحوائج وفيه رضا الله**»[23]، وفي رواية أخرى قال: «**كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبتر**»[24]، ولعلّ محمّداً استقى ذلك من التراث الجاهلي، إذ كان يُطلق على الخطبة التي لم تبدأ بحمد الله والثناء عليه البتراء، ثمّ اقتبس ذلك لاحقاً من رسالة سليمان إلى بلقيس التي ورد ذكرها في القرآن[25]، والذي نفهمه أنّ الوصول إلى آية البسملة احتاج إلى تدرّج في شكل تراكم معرفيّ تمّ حسمه حوالي السنة الثامنة للهجرة.

19- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، ص77. هذه العبارة استهلّ بها محمّد هدنة الحديبية، ولكن لم تكن حكراً عليه، ويبدو أنّها كانت متواترة في الكثير من الكتابات والرسائل، انظر على سبيل المثال ما كتبه أبو سفيان بن حرب إلى محمّد: «باسمك اللّهم».

20- انظر: مصادر الشعر الجاهلي، ص73، والأغاني، ج4، ص123، وكذلك المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمّد محيي الدّين الخطيب، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط5، 1973م، ج1، ص73-74.

21- الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوي) أسباب النزول، تحقيق عبد الله المنشاوي، دار المنار، القاهرة-مصر، ط1، 2001م، ص169.

22- انظر: العسكري (أبو هلال) الأوائل، تحقيق محمّد السيّد الوكيل وتعليقه، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلاميّة، طنطا، مصر، ط1، 1987م، ص99 وما بعدها، وانظر كذلك: الجبوري (يحيى وهيب) الخطّ والكتابة في الحضارة العربيّة، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1994م، ص55. - التنبيه والأشراف، ص225 وما بعدها.

23- المتقي الهندي (علاء الدّين علي) كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق صفوة السقا وبكري الحيّاني، ط5، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1985م، ج10، ص246.

24- المصدر نفسه، ج10، ص246.

25- انظر: النمل 30/27.

ولم يقتصر محمّد في ما تناوله من معجم في مقدّمات خطاب رسائله على السلم والسلام والبسملة والحمد والدعاء، فقد روى البخاري ومسلم مثلاً في صحيحيهما أنّ محمّداً لمّا أرسل رسالته إلى هرقل، ذكر فيها اسمه، واسم المرسَل إليه، والتحيّة ثمّ قوله: أمّا بعد[26].

والذي نفهمه أنّ قول محمّد «**أمّا بعد**»، بعد البسملة، وذكر اسم المرسل، والمرسَل إليه، والسلام، يتنزّل إمّا في إطار فصل الخطاب والدخول في الموضوع المطروح مباشرة، أو اقتداء بهذا الملفوظ الذي كان سائداً في الرسائل التراثيّة، وفي العديد من المدوّنات في العصر الجاهلي، أو تساوقاً مع ما كان شفويّاً في الخطب الدّينيّة والحربيّة، أو قد يكون موضوعاً من قبل الرواة حتى تضاهي رسالة محمّد ما كان سائداً في السُّنّة العربيّة.

إنّ جميع تلك الاعتبارات هو ما يدعونا إلى الاعتقاد أنّ خطاب هذه المقدّمات يتقاطع في الكثير من مضامينه مع ما كان سائداً، إذ تُحيل أغلب مطالع الرسائل على مستويين اثنين؛ فإذا كانت رسالته إلى من اتبعه وناصره وأسلم كان خطابه بقوله: «**سلام الله عليك**»[27]، وربّما قال في خطاب آخر للمعارض المخالف: «**سلام على من آمن**»[28]، وربمّا سكت عن السّلام نهائيّاً في صدر الخطاب[29]، أو يذكر التحميد بعد السلام فيقول: «**إنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو**»[30]، وقد يأتي بعد التحميد بالتشهّد[31]، فخطاب المقدّمات يُحيل على مرجعيّة المرسل، وخلفيّاته، ومدى احترامه وتقديره، أو إهانته ونظرته الدونيّة إلى المرسَل إليه.

وقد يبدأ محمّد رسائله بالبسملة وإزجاء الحمد لله، ثمّ إبداء التحيّة إلى المرسَل إليه، بواحدة من الصيغ العربيّة والإسلاميّة المتواترة مثل السلام عليكم، أو السلام على من اتبع الهدى، ويحرص على مخاطبة المرسل إليه بلقب من ألقاب التعظيم والاحترام، على نحو عظيم الروم وعظيم القبط وعظيم الحبشة، وقد يختار محمّد عدداً من العبارات التي يوظّفها في هذه التقديمات، عادة ما تنبني على مرجعيّة قرآنيّة، وأخلاقيّة، وفق أصناف المرسل إليهم دينيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً بُغية استقطابهم ومخاتلتهم وكسب ودّهم،

26- انظر: ابن الحجّاج (أبو الحسين مسلم) صحيح مسلم، شرح النووي، المطبعة المصريّة، الأزهر، القاهرة 1930م، ج 12، كتاب الجهاد والسير، باب كُتب النبيّ، ص107، وانظر كذلك: البخاري (أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل) الجامع الصحيح، تحقيق محبّ الدّين الخطيب، ومحمّد فؤاد عبد الباقي، وقصي محبّ الدّين الخطيب، المطبعة السلفيّة، القاهرة-مصر، ط1، 1980م، ج2، كتاب الجهاد والسير، باب هل يرشد المسلم أهل الكتاب أو يعلّمهم الكتاب، حديث 2940، ص341 وما بعدها.

27- سيرة ابن هشام، رسالته إلى المنذر بن ساوى، ج4، ص302.

28- الطبقات الكبرى، رسالته إلى ضغاطر أسقف الروم في القسطنطينيّة، ج1، ص239.

29- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، رسالته إلى يهود بني عاديا من تيماء، ص98، وإلى يهود خيبر مثلاً، ص92.

30- سيرة ابن هشام، رسالته إلى النجاشي ملك الحبشة، ج4، ص302.

31- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، رسالته إلى المنذر بن ساوى، ص146.

ونعتقد أنّ عتبات هذه الرسائل هي عبارة عن تعاقد بين محمّد والمرسَل إليهم، وميثاق تواصلي يُحيل على توقيع من قبل المرسِل، وقراءة من قبل المرسَل إليه.

ولا يمكن أن نلج مضامين الرسائل النبويّة ومتون كتبه إلّا بعد اجتياز هذه المقدّمات، التي هي عبارة عن محمولات وجدانيّة ونفسيّة وتاريخيّة وسياسيّة، وهو ما لا يمكن أن نتبيّن دلائله إلّا من خلال تفكيك هذه الرسائل وتحليلها.

2- المتن:

إنّ النظر في متون رسائل محمّد التي أرسلها إلى ملوك العرب في شبه الجزيرة العربيّة وخارجها، مثل الغساسنة بالشام، وعُمان، واليمن، وملوك البحرين، ورسائله إلى الأباطرة والملوك المحيطين بالجزيرة العربيّة على غرار كسرى وهرقل والنجاشي والمقوقس ونحوهم، هي متون موصولة بالرصيد اللغوي والمضامين الفكريّة.

إنّ هذه المضامين المتشكّلة من طبقات نصّيّة تُحيلنا على عدم انتظام الرسائل النبويّة وتواترها في مختلف المصادر، ممّا ينعكس على حجم المكاتيب المحمّديّة من حيث الكمّ والمساحة الكلاميّة وعدد الجمل والكلمات بصورة عامّة، فهي متون متحرّكة متغيّرة لا تعرف الاستقرار من حيث الزمان والمكان والرواة والأسلوب.

ونظراً إلى استحالة الإحاطة بكلّ مضامين الرسائل النبويّة، والوقوف على متونها متناً متناً، والإحاطة بها إحاطة وافية وموضوعيّة، اخترنا أن نبحث في نماذج من هذه الرسائل، على نحو رسائل محمّد إلى كلّ من هرقل، وإلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال والنعمان، وقيْل ذي رعين ومعافر وهمدان، وإلى المنذر بن ساوى أمير البحرين، وإلى النجاشي ملك الحبشة[32].

لقد أردنا من خلال إبداء هذه الملاحظات أن نبرز أنّ متن هذه المراسلات النبويّة مختلف من مصدر إلى آخر، ومن رواية إلى أخرى، وهذا يؤثر تأثيراً مباشراً في حجم الرسائل، فتبدو متغيّرة من حيث الحجم، فرسالة هرقل مثلاً عند ابن شهاب الزهري[33] مطابقة في نصّها لما ورد في صحيح مسلم[34]، باستثناء لفظة

32- سيأتي الحديث عن تفاصيل المضامين التي وردت في رسائل محمّد في مكانه، ولكن اقتصرنا هنا على نماذج أسلوبيّة خدمت متن الرسائل.

33- انظر: المغازي النبويّة للزهري، ص60.

34- انظر: صحيح مسلم، ج12، ص107-108.

«**الأريسيين**»، أمّا رواية البخاري، فقد أضافت عبارة «**عبد الله**» عوضاً عن «**رسول الله**»[35]، ولئن أشار ابن سعد في طبقاته إلى هذه الرسالة والظروف التي حفّت بها، فإنّه لم يذكر نصّها[36]، في حين يُثبت محمّد حميد الله عبارتين، هما «**عبد الله**» و«**الأريسيين**»[37]، فينسجم في ذلك مع ما ذهب إليه كلّ من البخاري ومسلم في روايتهما. أمّا القلقشندي، فإنّه يجانب ما ورد من خطاب في مقدّمة هذه الرسالة في مختلف المصادر، إذ يثبت جملة: «**من محمّد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم**»[38]، بينما نقف من خلال السيرة الحلبيّة على قوله: «**من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم**»[39].

والأمر نفسه في هذا التباين من حيث الحجم نقف عليه من خلال رسالة محمّد إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال والنعمان، وقيْل ذي رعين ومعافر وهمدان، إذ يتنامى النصّ المتغيّر أحياناً، فمتن الرسالة عند ابن إسحاق[40] يتباين مثلاً مع ما ورد عند محمّد حميد الله[41]، على نحو إضافة «**ذلكم**»، «**فإنّي أحمد إليكم**»، «**وخبر ما قبلكم**»، في حين عند ابن إسحاق «**وخبرنا ما قبلكم**»، وروايته: «**وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر**»، بينما عند ابن إسحاق: «**وفي ثلاثين من الإبل شاتان**، «ويذكر محمّد حميد الله: «**فإنّ رسول الله هو مولى غنيّكم وفقيركم**»، بينما يروي ابن إسحاق: «**هو وليّ غنيّكم وفقيركم**»، وفي الرواية التي اعتمدها محمّد حميد الله يذكر في هذه الرسالة «**وفارقت المشركين**»، في حين يورد ابن إسحاق «**وقاتلت المشركين**»، وهي الرواية ذاتها التي ذكرها ابن هشام[42]، وقد ذكر ابن سعد[43] هذه الرسالة الموصولة بجمع الصدقة، ودفع الجزية إلى معاذ بن جبل ومالك بن مرارة، إلّا أنّه لم يروِ نصّ الرسالة.

يتضح من المصادر المختلفة أنّ رسالة محمّد إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين هي الأخرى لا تخلو من هذه التناقضات والأخطاء الإملائيّة واللغويّة، والاختلاف في نصّها، فابن سعد مثلاً اكتفى برواية الجزء الأخير من الرسالة[44]، بينما طابق نصّ الرسالة كاملاً الوارد عند محمّد حميد الله[45] متن الرسالة في السيرة

35- انظر: صحيح البخاري، ج2، حديث 2941، ص909.

36- انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ج1، ص223.

37- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، ص109.

38- انظر: صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ج6، ص377.

39- انظر: الحلبي (علي برهان الدّين) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروفة بالسيرة الحلبيّة، المطبعة الأزهريّة، القاهرة-مصر، ط3، 1932م، ج3، ص338-339.

40- انظر: سيرة ابن إسحاق، ج2، ص658.

41- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، ص221.

42- انظر: سيرة ابن هشام، ج4، ص279-280.

43- انظر: الطبقات الكبرى، ج1، ص228.

44- انظر: المصدر نفسه، ج1، ص226-227.

45- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، ص146.

الحلبيّة[46]، بيد أنّ ما ورد في «صبح الأعشى»[47] هو مخالف لهذه الروايات، فقد حذف عبارة: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وبدّل عبارة: «**لا إله غيره**» بلفظة «**إلّا هو**»، وذكر «**فلن نعزلك**»، عوضاً عن «**فلن نعزلك من عملك**»، وحذف عبارة «**يهوديته**» في جملة: «**ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية**».

وتكشف رسالة محمّد إلى النجاشي عن أنّها لا تختلف كثيراً عمّا ذكرنا سابقاً من هذه الاختلافات، فابن سعد لم يرو النصّ بل ذكر الظروف الحافّة بحدث التراسل، وبعلاقة محمّد بالنجاشي والهدايا التي تسلّمها منه[48]، إلّا أنّ السيرة الحلبيّة لئن ذكرت نصّ المراسلة فإنّها حذفت الكثير من الألفاظ على نحو «**الأصحم**»[49]، في حين أثبتها محمّد حميد الله[50]، وحذفت السيرة الحلبيّة: «**وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم، ودع التجبّر**»، أمّا القلقشندي، فإنّه يدخل تحويراً على المراسلة[51]، فيجعل ترتيب هذه الجملة قبل التحيّة: «**والسلام على من اتّبع الهدى**»، فينقص من الرسالة الكثير من الكلمات على نحو: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، و«**الأصحم**»، و«**سلم أنت**»، و«**الذي لا إله إلّا هو**»، و«**روح الله وكلمته**»، و«**الموالاة على طاعته**»، أو إضافة بعض التعابير على نحو «**عزّ وجلّ**».

نستشفّ من كلّ ما تقدّم أنّ هذا التضارب في رواية الترسّل المحمّدي هو أنموذج تفسيري، يوضح لنا أنّ هذا الاختلاف في بنية الرسائل النبويّة ومدلولها ينعكس على حجم هذه الرسائل ومحتواها، فقد ذهب محمّد حميد الله مثلاً إلى أنّ أغلب هذه الرسائل وصلتنا بطرق مختلفة، وبآليّات متعدّدة، فقد وصلت ستّ رسائل من زمن محمّد مثلاً مكتوبة على الرقوق، هي رسائل محمّد إلى المقوقس، والنجاشي، وكسرى، والمنذر بن ساوى، وهرقل، وجيفر وعبد ابني الجلندى ملكي عمان. والملاحظ أنّ هذه الرسائل وغيرها لم تخلُ من حذف وأخطاء إملائيّة ونحويّة وبعض الحروف الناقصة، وبعض الكلمات المحذوفة أو المطموسة، ممّا دعا بعض الباحثين المحدثين إلى الشكّ في صحّتها على غرار المستشرق الألماني فليشر هينرخت (1801-

46- انظر: السيرة الحلبيّة، ج3، ص349.

47- انظر: صبح الأعشى، ج6، ص368.

48- انظر: الطبقات الكبرى، ج1، ص222-223.

49- انظر: السيرة الحلبيّة، ج3، ص343-344.

50- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، ص100.

51- انظر: صبح الأعشى، ج6، ص379.

1888م) (Fleischer)[52]. ولعلّ ذلك يعود إلى عدّة أسباب واعتبارات منها: تعرّض الرقّ الذي دوّنت عليه هذه المكاتيب إلى التلف والتمزّق نظراً إلى قدمه، أو إلى الاختلاف في الرواية، أو إلى ظاهرة الوضع ونحو ذلك من الأسباب[53].

والمتفحّص لهذه الرسائل النبويّة يستنتج أنّ الأمر لا يقتصر على تأثير البُعد المعجمي في تشكيل حجمها، بل إنّ الأسلوب الذي وظّفه محمّد هو أسلوب متغيّر بتغيّر الجهة، والمرسل إليه، وموضوع الرسالة، فيختار مثلاً الأسلوب والعبارة إلى مخاطبيه الملوك والأمراء والأباطرة والوزراء والحكّام والعلماء والخطباء والشعراء، فخاطب كلّاً على قدر مكانته، مراعياً في هذا الأسلوب المنتقى الطبقة الاجتماعيّة المخاطبة، أو الشريحة السياسيّة، أو الجهة العسكريّة، أو الكيان الدّيني، أو السلطة الماليّة، فينتقي العبارة والأسلوب والمقاربة والمرجعيّة التي يجب عليه أن يراعيها في مراسلاته إيّاهم.

بناء على هذه الضوابط والالتزامات، سلك محمّد طرائق التزمها مع كلّ من راسله، فكان إذا راسل الملوك في أوقات الحرب مثلاً أو قادته العسكريين يوجز العبارة ويتخيّر من الكلام فصل القول[54].

فإذا كانت الرسالة التي يكتبها موجّهة إثر انتصارات وفتوحات، فإنّه يتوسّع في مضامينها لبيان النعمة التي أغدق الله بها على أتباعه، وفيها يصوّر القوّة الإلهيّة حتى يبيّن أنّ ما أحرزوه من انتصار لم يكن هيّناً ووليد الإرادة الذاتيّة فحسب، بل لولا تدخّل القدرة الإلهيّة، لما حصل ما حصل من انتصار ونجاح[55].

أمّا إذا كانت الرسالة التي يكتبها موجّهة إلى السّاسة، وخاصّة إلى معارضيه، فإنّه يبسط الموضوع ويردفه شرحاً وتعليلاً، وينتقي عبارة الاستقطاب والمخاتلة، وقد أفضى هذا الأسلوب إلى دخول بعضهم في الإسلام، فاكتسب محمّد بذلك سنداً وأزراً في دعوته الجديدة، فقد أسلم النجاشي حسب بعض الروايات، وإن

52- ورد اسمه في الأعلام «فلايشر»، ولعلّ ما مكن الرجل من التعمّق في المخطوطات العربيّة والإسلاميّة التي من بينها وثائق الترسّل وتتبّع التاريخ العربي ونقده هو ما انتشر من حراك ثقافي قوي في عصره أسهم في نشر الفهارس والنصوص باللغات الشرقيّة والإشارة إلى القراءات المختلفة لها، ثمّ إتقانه العديد من اللغات؛ مثل العربيّة والفارسيّة والتركيّة والعبريّة والآراميّة، ممّا أفضى إلى العديد من تآليفه عن العرب والإسلام، وممّا نشره بالعربيّة «تاريخ أبي الفداء» مع ترجمة ألمانيّة «فهرست المخطوطات الشرقيّة»، «تفسير البيضاوي»، «المفصّل في علم العربيّة للزمخشري». راجع في ذلك: الأعلام، ج8، ص69.

53- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص11-22-24-29.

54- انظر: المصدر نفسه، رسالته إلى خالد بن الوليد مثلاً، ص166.

55- مجموعة الوثائق السياسيّة، رسائله مثلاً في مقاسم أموال خيبر وقمحها، ص94-95. ما يلاحظ في هذه الرسالة الموصولة بمقاسم أموال خيبر وقمحها أنّ محمّداً تعامل مع اليهود ماليّاً وتجاريّاً، بل فرض عليهم الضرائب والرسوم، وقسّم هذه الحصص بين أتباعه ونسائه بتفاوت كبير من خمسة أوسق لأمّ رُميثة إلى مئة وأربعين لعُقيل بن أبي طالب، أمّا بالنسبة إلى نسائه، فقد كان نصيبهنّ مئة وسق وثمانين وسقاً، ولعلّ هذا ما أفضى إلى مأسسة الصدقة والزكاة والإنفاق والفيء وأخذ الجزية من عرب أهل الكتاب والمجوس وخراج الأرض، وقسْ على ذلك العديد من المعاملات الماليّة.

لم يستطع حمل قومه على الإسلام[56]، وأسلم باذان أمير اليمن ومن معه، وحرص بعض من لم يسلم على إظهار الودّ بحسن القبول، وإرسال الهدايا[57].

أمّا إذا كان المكتوب إليه متّهماً بموالاة العدوّ ونُصرته والانحياز إليه، فإنّه يذكّره في الرسالة بمضامين خاصّة تُحيل على التهكّم والسخرية والتوبيخ، ويبرز من خلال بعض صور التهديد موقفه المعلن من هذه الجهة، وإن كان ذلك في معرض الأخبار[58].

والذي نفهمه أنّ محمّداً أو الذي أوهم بنسبة هذا الكلام إليه، استطاع أن يطوّر قدراته اللغويّة، وأن يشكّل منجزاً ثقافيّاً عربيّاً وإسلاميّاً ليصبح بمثابة العمود الفقري الذي يمكّنه من أن يتغلّب على القيود البيئيّة والأنماط السائدة مثل الضوابط القبليّة، والأعراف الاجتماعيّة، والعلاقات التجاريّة من أحلاف ومعاهدات وطقوس دينيّة، وهو ما وفّر له القدرة على تحقيق المزيد من التأقلم مع الظروف المتغيّرة والقاسية أحياناً، ولا شكّ في أنّ المسائل المبحوث فيها مضموناً ومنهجاً تختلف من رسالة إلى أخرى، ومن كيان سياسي إلى آخر، ويمثّل هذا التنوّع في المناصب سلطة دينيّة أو سياسيّة أو فكريّة حاكمة، حاول محمّد أن يفهمها، وأن يتعامل معها بحنكة، وهو ما جعله يلوّن أساليب معجمه واقتباساته طبقاً للوجهة التي اختارها في مراسلته، وانسجاماً مع المبعوث الذي اصطفاه، وحسب مكانة المرسل إليه، وهو ما حدا به إلى أن يلوّن متون رسائله سرداً ووصفاً وحواراً وأساليب شرطيّة وإخباريّة وتوكيديّة، وكلّ هذا يُترجم كيف أنّ حجم الرسالة يقصر أو يطول، ويقلّ أو يكثر، طبقاً لهذه الآليّات الموظّفة والمقاربات الأسلوبيّة الموصولة ببنية المراسلات المحمّديّة.

من خلال تتبّعنا رسائل محمّد وقفنا على أنّه اشتغل على العديد من الأبنية منها اللغة والأسلوب والفكرة، والغاية من ذلك الوصول إلى تحقيق عدد من المضامين الموصولة بالدّين والمال والسياسة ونحو ذلك، ومن هذه الأفكار نذكر أسلوب الإخبار من أجل إبلاغ الخبر، الذي يريد أن يبلّغه، وأسلوب الشرط وهو عبارة عن إحالة على القوّة النفسيّة والماديّة والعسكريّة، فيصبح هذا الأسلوب دلالة على الالتزام من المرسِل، والإلزام من قبل المتقبّل، ثمّ أسلوب التوكيد على الخبر المبلّغ، والتدليل على الثبات على المبدأ والإصرار على الهدف والإيمان بالقضيّة التي يروم أن يحققها المرسِل.

56- انظر: ابن طولون (محمّد الدمشقي) إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومراجعة محمود الأرناؤوط، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط2، 1987م، ص19.

57- المصدر نفسه، هدايا المقوقس إلى محمّد، ص20. أهدى المقوقس ملك الإسكندريّة ومصر مارية القبطيّة وأختها سيرين إلى محمّد، ويبدو أنّ ظاهرة الهبة والهديّة والزواج لها أساس اجتماعي في التعامل، فكانت منتشرة عند الشعوب؛ لأنّها تقوّي أواصر المفاوضات والحوار والتواصل بين الملوك والزعماء والدول.

58- المصدر نفسه، رسالته إلى مسيلمة، ص112.

إنّ هذه الأساليب هي مجرّد نماذج اصطفيناها لنبيّن من خلالها منزلة الترسّل النبوي، وكيف أنّ محمّداً اختار عُدّة لغويّة من أجل تحقيق ما ورد فيها من مضامين فكريّة وسياسيّة ودينيّة وماليّة، ثمّ كيف أنّ هذه المقاربات الأسلوبيّة تنعكس انعكاساً مباشراً على هذه الرسائل النبويّة وحجمها. وسنتناول هذه الأساليب تباعاً، لنبيّن مدى تأثيرها في حجم هذه المكاتيب النبويّة.

2-1- أسلوب الإخبار: الإيجاز/ الإطناب

لئن أسهب محمّد في أسلوب الإخبار في العديد من رسائله، فإنّه كان مقلّاً في بعض الرسائل الأخرى، ملتزماً بالإيجاز في موضوع الرسالة، والاقتصار على القدر الضروري من المقول دون التوسّع في ذكر الجزئيّات والتفاصيل والأمور الثانويّة، ولعلّ هذا من التجليات التي تنعكس على هيكل الرسالة ومباحثها اللغويّة، ويمكن أن نمثّل لهذا الأسلوب بما تواتر من جمل اسميّة في رسائله قصد إخبار الآخر وإعلامه بفحوى الرسالة، وبيان أوامره ومطالبه على غرار ما أخبر به أهل أذرح: «**وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمّد قبل خروجه**»[59].

والحديث المراد به حسب السياق في هذه الجملة الاسميّة الإخباريّة التي ورد فيها المبتدأ ضميراً والخبر نكرة، هو إعلام أهل أذرح وإخبارهم بمضامين هذه الرسالة. وقد يرد الإخبار أحياناً أخرى في جملة اسميّة يكون المبتدأ فيها مضافاً إلى علم، ويرد الخبر نكرة، على غرار ما أخبر به محمّد في رسالته إلى بني أسد: «**وذمّة محمّد بريئة ممّن عصاه**»[60].

فكلّ واحد يتحمّل مسؤوليّة اختياراته وتبعات أخباره، ومحمّد لا يتحمّل إثم من عصى وانحرف. وقد يتواتر أسلوب الإعلام والإخبار في مختلف رسائله إلى من يخاطبهم من مختلف الشرائح والجهات والجماعات والكيانات الدّينيّة والسياسيّة، ونقف في رسالته إلى أهل مهرة كيف أنّ محمّداً التزم بعهده إزاءهم، على أن يحفظ لهم حقوقهم الماديّة والمعنويّة على نحو أن ترعى مواشيهم الكلأ وترد الماء، مقابل

59- مجموعة الوثائق السياسيّة، ص118-119.

60- المصدر نفسه، ص303.

أن يلتزموا بما التقطوه من مال ضائع أن يُردّ إلى بيت مال المسلمين أو إلى أصحابه، على حدّ ما جاء في قوله في هذه الرسالة: «**اللُّقطة[61] مؤدّاة والسارحة[62] منداّة[63]**»[64].

ولعلّ هذا الإخبار لا يتحدّث عن السارحة واللقطة بصورة عامّة ومطلقة، أي لا يشتمل الإخبار عن كلّ لقطة في الوجود، ولا كلّ سارحة على وجه الأرض، فاللقطة والسارحة المراد بهما ما كان معهوداً بين بني مُهرة الذين أخبرهم محمّد بهذه الرّسالة.

تسعفنا الرسائل المحمّديّة بالكثير من هذا الأسلوب الإخباري الذي يوظّفه محمّد باستمرار تأميناً لما يريد أن يصل إليه، وهو التزامه من ناحية وإلزام المتقبّل من ناحية أخرى، هذا التفاعل من خلال المنجز لا يمكن أن يحصل إلّا بفضل ما يتمّ الإخبار به والاتّفاق حوله بين المرسل والمرسل إليه، على نحو ما التزم به محمّد في رسالته إلى قبيلة أسلم، إذ أعطى لكلّ من دخل في الإسلام من هذه القبيلة العهد على احترامهم واحترام حقوقهم، والتكاتف والتعاون على من اعتدى عليهم، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «**اليد واحدة والنصر واحد**»[65].

فالإخبار عن اليد وعن النصر إنّما المراد بهما ليس كلّ قوّة، ولا كلّ نصر على وجه البسيطة، وإنّما خصّا بما كان من عهد والتزام بين محمّد وقبيلة أسلم، وضمن التوجّه نفسه نقف في تضاعيف هذه الرسائل المحمّديّة على عدد لا يُحصى من الشواهد التي تثبت أساليب الإخبار، كأن يكون المبتدأ اسم إشارة والخبر نكرة، وقد يتواتر هذا التركيب في رسائل محمّد، ومثاله:

- «**هذا كتاب من محمّد النبيّ رسول الله إلى بني زهير بن أُقيش**»[66].

- «**هذا كتاب من محمّد النبيّ إلى مُجاعة بن مُرارة بن سُلمى**»[67].

61- انظر: لسان العرب، مادّة (ل، ق، ط)، مج5، ج42، ص4060-4061. اللُّقطة: كلّ ما يمكن أن يلتقطه الإنسان على نحو المال الضائع.

62- المصدر نفسه، مادة (س، ر، ح)، مج3، ج22، ص1984. السارحة: الماشية من الإبل والغنم التي تسرح بالغداة إلى مراعيها، والسارحة: هي الدابة الواحدة، وهي أيضاً الجماعة.

63- المصدر نفسه، مادّة (ن، د، ي)، مج6، ج49، ص4388-4389، نقول: تندو الإبل من المشرب إلى مرعى قريب، ثمّ تعود إلى الماء من يومها، أو الغد.

64- مجموعة الوثائق السياسيّة، ص251.

65- المصدر نفسه، ص271.

66- إعلام السائلين، ص88.

67- مجموعة الوثائق السياسيّة، ص158.

- «**هذا بيان من الله ورسوله**»[68].

والذي نلحظه في هذه الجمل الاسميّة الإخباريّة، هو تواترها في المنجز التراسلي، إذ جاء المبتدأ في أغلب الرسائل النبويّة اسم إشارة، والغرض من ذلك استحضاره وتعيينه بالإشارة إليه وذلك لتمام العناية به، ونحن نعرف أنّ «**هذا**» متشكّلة من «**ها**» التي تفيد التنبيه، التي يتواتر اتصالها باسم الإشارة المجرّد «**ذا**».

إنّ ما اشتغل عليه محمّد من مقاربات أسلوبيّة ولغويّة الغاية منه أن يحصل لدى المتلقّي قوّة الإخبار بالمعرفة، وهذا الأسلوب الإخباري يقصر أو يطول، ويقلّ أو يكثر، ينعكس بشكل أو بآخر على حجم الترسّل.

2-2- أسلوب التوكيد:

لم يكتفِ محمّد بإدراج أسلوب الإخبار، بل وظّف خدمة لذلك أسلوب التوكيد، وهو أسلوب يستعمل لتقوية المعنى وتدعيمه، وقد وظّف مختلف أدوات التأكيد على نحو: إنّ، قد+ماضٍ، السين+سوف، لام الابتداء، نونا التوكيد، أداة التنبيه ألا، ضمير الفصل، أداة القصر إنّما، الباء بعد نفي، إلى آخره من الأدوات، وقد ظهر ذلك في عديد من الجمل التوكيديّة المتواترة في رسائله، ومثال ذلك: «**أمّا بعد فقد نزل[69] عليّ آيتكم[70] راجعين إلى قريتكم**»[71]. لا يخلو كلام محمّد من توكيد (قد) في رسالته إلى بني جنبة، مفاده أنّ القوم أو الجماعة التي نزلت عليه ستعود آمنة سالمة إلى قريتهم.

«**فإنّه قد وقع بنا[72] رسولكم**»[73].

أكّد محمّد على عدد من الأفكار، من بينها التأكيد لبني همدان أنّ رسولهم نزل عنده، وأنّه استقبله وفهم المراد من رسالته.

«**إنّ الله هداك بهداه إن أصلحت وأطعت الله ورسوله**»[74].

68- صبح الأعشى، وهو ما كتبه محمّد لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، ج10، ص8-9.

69- نقول: نزل بالمكان أي حلّ به.

70- لسان العرب، مج1، ج 3، ص185، مادة (ء، ي، ي)، خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم.

71- مجموعة الوثائق السياسيّة، رسالته إلى بني جنبة وإلى أهل مقنا، ص120.

72- أي نزل بنا.

73- إعلام السائلين، كتاب محمّد إلى وفد همدان، ص124.

74- مجموعة الوثائق السياسيّة، من رسالته إلى فروة بن عمرو الجذامي، ص126.

«**فقد استحقّ[75] سلمان ذلك من رسول الله**»[76].

والذي نفهمه أنّ محمّداً وظّف أسلوب التوكيد نظراً إلى اهتمامه وعنايته بما يطرحه من أطروحات وعهود والتزامات إزاء نفسه أو إزاء مخاطبيه، فكلّما عظم الاهتمام، كثر التأكيد، وكلّما خفّ، خفّ التأكيد، وكلّما أصرّ المتقبّل على الرفض والتمرّد، ازداد محمّد إصراراً على الإخبار والتأكيد، وكلما زاد المتلقّي إنكاراً، زاد المرسل تأكيداً، وهكذا يُزاد في التوكيد كلّما زاد المرسل إليه رفضاً وإنكاراً.

2-3- أسلوب الشرط:

وظّف محمّد أسلوب الشرط باعتباره عُدّة لغويّة وأسلوبيّة تخدم أغراض المتن، لذلك استعمل بعض الحروف والأسماء للتعبير عن الشرط، ومثال ذلك حرفا الشرط، (إن، لو)، وبعض أسماء الشرط من أهمّها، (من، ما، مهما، أيّ، إذا) ونحو ذلك من الأسماء والحروف، ويمكن أن نمثّل على ذلك بهذه النماذج الآتية:

- «**إذا نظرت كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة**»[77].

- «**وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإنّ ملككما زائل عنكما**»[78].

- «**من أجبى فقد أربى**»[79].

- «**فمن آذاهم آذاه الله، ومن آذاهم لعنه الله**»[80].

إنّ ما يمكن أن نستخلصه من هذه الجمل الشرطيّة هو تميّزها بالإيجاز والسهولة، لتأخذ طابع الحكمة والمثل والقاعدة، وتتجاوز الترغيب والالتماس إلى الإجبار والإلزام والأمر والترهيب، ويمكن أن نفسّر تواتر الشرط في رسائل محمّد باعتباره إحالة على خصوصيّة العموم الموصولة برسالته، ومن ثمّة كان الشرط أقرب إلى توضيح خصائص الإسلام ومرتكزات الدعوة.

75- أي أوجبه لنفسه.

76- مجموعة الوثائق السياسيّة، من رسالته إلى سلمان الفارسي، ص328.

77- المصدر نفسه، من رسالته إلى عبد الله بن جحش، ص68.

78- إعلام السائلين، من رسالته إلى جيفر وعبد ابني الجلندى، ص96.

79- مجموعة الوثائق السياسيّة، من رسالته إلى وائل بن حجر، ص246 إلى 251.

80- إعلام السائلين، جملتان شرطيتان من رسالته إلى تميم بن أوس الداري، ص152-153.

لقد قرأنا هذه المتون مثلما تجلّى لنا، وبما توفّر لدينا من جهاز لغوي، وحسب ما تشي به من مضامين، إيماناً منّا أنّ القراءة أسّ في إحياء النصّ، وأنّ القراءة قراءات، وإلّا بقي النصّ دون ذلك في حالة تكلّس، ونعتقد أنّ الفهم الحقّ للنصّ أن نفهمه بآليّاتنا ومنهجنا، وعلى ضوء مشاغلنا ولحظتنا الراهنة، وانطلاقاً من التحدّيات التي نواجهها، وهذا يخالف ما قد فهمه منجز هذه الرسائل أو ممّا أراد أن يُبلّغه، فليس بالضرورة أن نفهم من قراءاتنا المتعدّدة ما أراد أن يُفهمه كاتب النصّ ومنجزه، الذي استطاع أن يُشكّل خطابه بالطريقة التي ارتآها، وبالشكل الذي يُحقق أغراضه «**فهو يختار من المفردات المشتركة الكلمات التي تعبّر عن رسالته على خير ما يرام. إلّا أنّ قارئ النصّ لا يبقى معتمداً على نوع واحد من أنواع القراءة**»[81].

بيد أننا وإن أشرنا إلى هذه الملاحظات، فإنّ ما يهمّنا فيها هو: هل نجح محمّد بالبعض من هذه الرسائل في إرساء أسس التفتّح على الآخر؟ هل إنّ محمّداً كان واعياً بهذه الأساليب الموظفة في هذه المراسلات؟ هل خدمت هذه الاستعمالات اللغويّة الترسّل المحمّدي وأكسبته أبعاداً ذهنيّة وحضاريّة؟

3- من خواتيم الترسّل:

نقرأ في أغلب فقرات الخواتيم الموصولة بالرسائل النبويّة، أنّ محمّداً يميل إلى التحميد، والتسليم، والسلام، والإشادة بمزايا الإسلام على الناس أجمعين، والتذكير بعواقب الكفر والزيغ عن الرشاد، والانحراف عن طريق الجادّة والصراط المستقيم، وهي ملفوظات لم تخلُ من أسلوب الترغيب والترهيب، وإن اختلفت نسبيّاً من رسالة إلى أخرى، إلّا أنّها لم تخرج عن مدار ما عُرف من تقاليد الخواتيم وخصوصيّاتها، لذلك لم نجد فرقاً يذكر بين مكاتيبه في السياسة إلى الملوك والأمراء والأباطرة والزعماء، وما كتب في الشأن العسكري إلى أمرائه وسراياه وبعوثه، وما كتبه في المعاهدات وعقود الصلح، وما دأب عليه في مراسلاته الخاصّة المتعلقة بشؤونه ومعاملاته، وما دُوّن في المجالات الماليّة على غرار أموال الصدقات والزكاة.

يبدو أنّ أولى خاصيّات هذه الخواتيم، هي الحرص فيها على الانتهاء بخطاب ديني يكون سلاماً أو دعاء أو حمدلة أو تحيّة، وكلّ هذا يتأتّى ضمن محمولات لفظيّة مخصوصة هي عبارة عن موضوع مخصوص، كانت له دوافعه وأسبابه ومجالاته، وفضاء تداوله وتداعياته، وما الخاتمة إلّا مجموعة من الملفوظات التي لا يمكن أن تخرج عن هذا الحيّز الكلامي، فهي رسالة موجّهة، وموضوع «**يُستخدم، يستعمل، يتخفّى، يسمح**

81- مانغويل (ألبرتو) تاريخ القراءة، ترجمة سامي شمعون، دار الساقي، بيروت-لبنان، ط1، 2001م، ص211.

أو يمنع تحقيق رغبة ما، يهادن بعض المصالح أو يواجهها، ينخرط في نظام الصراعات والنزاعات، يصبح عرضة للتملّك أو التنافس»[82].

ونظراً إلى أهمّيّة الخاتمة، والرسائل بخواتيمها، أولى محمّد عناية فائقة إلى هذا الجزء من رسائله، إلّا أنّ هذه الملفوظات التي أدرجها لم تكن على وتيرة واحدة، ومن معجم متجانس، بل هي متبدّلة متغيّرة حسب الموضوع المبحوث فيه، وحسب الجهة المرسل إليها، وحسب الحالة النفسيّة التي عليها محمّد، فقد يختم بعبارة «**السلام عليك**» أو يقتصر على عبارة «**والسلام**» على نحو:

«**والسلام عليك**»[83]، **والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين**»[84]، «**والسلام عليكم**»[85]، «**والسلام**»[86].

والمستفاد من هذه النماذج أنّ محمّداً عندما يخاطب من يخالفه في الدّين، خاصّة من المشركين واليهود والنصارى، يقتصر على ذكر عبارة «**السلام**» أو «**السلام عليكم**»، وهي شكل تعبيري للتدليل على أداء التحيّة، جاء في اللسان: «**والسلام: التحيّة، قال ابن قتيبة: يجوز أن يكون السلام والسلامة لغتين [...] أن يكون السلام جمع سلامة، وقال أبو الهيثم: السلام والتحيّة معناهما واحد، معناهما السلامة من جميع الآفات**»[87].

والذي نفهمه أنّ الالتزام بهذا التعبير جار حسب التقاليد الكتابيّة، وحسب أخلاق العرب، إذ من أوكد واجبات الإنسان التزامه بأداء التحيّة إزاء الآخرين، ثمّ إنّ الأفضليّة في الإسلام موصولة بالمبادرة في أداء التحيّة، خاصّة إذا أراد محمّد من وراء ذلك أن يكسب ودّ الآخرين وتعاطفهم بُغية نصرته، أو قد يختار محمّد أسلوباً آخر في الخطاب الختامي من رسائله، خاصّة إذا كان يخاطب من خالفه ديناً ولساناً وموقفاً بقوله: «**والسلام على من اتّبع الهدى**»[88].

82- Foucault (Michel), L'archéologie du savoir, Bibliothèque des sciences humaines, Gallimard, Paris, 1969, p. 138.

83- الطبقات الكبرى، رسالته إلى المنذر بن ساوى، ج1، ص238.

84- المصدر نفسه، رسالته إلى أسبيخت بن عبد الله صاحب هجر، ج1، ص238.

85- المصدر نفسه، رسالته لجماعة كانوا في جبل تهامة، ج1، ص241.

86- المصدر نفسه، من رسالة أخرى إلى المنذر بن ساوى، ج1، ص238-239، ورسالته إلى العلاء بن الحضرمي، ج1، ص239، وكذلك ابن سلام (أبو عبيد القاسم) كتاب الأموال، تقديم محمّد عمارة وتحقيقه، دار الشروق، بيروت-لبنان، ط1، 1989م، رسالته إلى زُرعة بن ذي يزن، ص290-291.

87- لسان العرب، مادّة (س، ل، م)، مج 3، ج24، ص2077 وما بعدها.

88- الطبقات الكبرى، رسالته إلى الهلال صاحب البحرين ورسالته إلى ضغاطر الأسقف، ج1، ص238-239.

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الملفوظات التي وجّهها محمّد إلى من خالفه الرأي أنّها عبارة عن إخبار يُحيل على الإيجاز والاختصار، مثلما يفيد ضرباً من البلاغة في القول، لذلك كان السلام مشروطاً بالهداية والطاعة والاقتداء بمحمّد، ولذلك لم يقل محمّد مثلاً: عليك السلام، أو على من اتّبع الهدى السلام، لأنّ السلام عليك تحيّة الأحياء، في حين وعليك السلام تحيّة الأموات، وهو ما عبّر عنه في رسائله، ومن خلال قوله: «**قل السلام عليك، فإنّ عليك السلام تحيّة الموتى**»[89].

ثمّ إنّ التعريف (ال) الوارد في عبارة السلام، لم يكن مصادفة وعبثاً، بل لعلّ القصديّة واردة في ذلك، ومحمّد تعمّد هذا الأسلوب، لأنّ التعريف للجنس، أي جنس السلام عليكم، أو على من اتّبع الهدى، أمّا غيركم، أو من لم يتّبع الهدى فليس منّا، وليس بيننا وبينهم سلم وسلامة وسلام، ويصبح البديل بعد الحوار والتحيّة والكلمة هو القتال والحرب، والسيف هو الفيصل، وإن لم يكن ذلك صريحاً فإنّ الأمر يبدو تلميحاً في جلّ الرسائل النبويّة. وربّما أضاف عبارة «**والعاقبة للمتّقين**» على نحو ما ورد في رسالته إلى مسيلمة «**والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتّبع الهدى**»[90]، وهي مقتبسة من القرآن في قوله: {إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعرَاف: 128]، فالعاقبة هي إحالة على النصر والظفر، أو قد تكون السعادة والخاتمة المحمودة، والألف واللام في عبارة العاقبة للعهد، وهذا العهد يرتبط بهذه الدلالات التي أحالت عليها العاقبة[91]، وكأنّ محمّداً يتعهّد لمن اتّقى بالنصر والفوز، ويلوّح من خلال هذا الالتزام الدّيني والأخلاقي بحثّ مسلمة على الانصياع والإيمان والانخراط في دعوة محمّد حتى تكون خاتمته محمودة.

قد يُدرج محمّد أحياناً في خاتمة رسائله ومعاهداته، ملفوظات أخرى على غرار ما كتبه لعمرو بن حزم حين وجّهه إلى اليمن في قوله: «**صلوات الله على محمّد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته**»[92]، أو على نحو ما ساقه من شهادات وأخبار علانية، مثلما هو حال رسالته إلى أهل نجران، فقد كانت خاتمتها إعلاناً للناس، لأنّها تُعدّ شأناً عامّاً، لذلك جاء في آخرها: «**شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نظر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة**»[93]، وأحياناً أخرى تكون هذه الشهادة منبثقة مباشرة عن محمّد وعن الله على منوال ما ذكره في خاتمة رسالته إلى الأكبر بن عبد القيس[94]، للتدليل على المراقبة والمتابعة، وأنّ عين الله ورسوله لا يمكن أن تغفل إطلاقاً عمّا يمكن أن يُقدم عليه الإنسان، وهذا ممّا

89- لسان العرب، مادّة (س، ل، م) مج 3، ج24، ص2077.

90- الطبقات الكبرى، ج1، ص236.

91- انظر: الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1986م، ج2، ص143.

92 - صبح الأعشى، ج10، ص11.

93- كتاب الأموال، ص282.

94- مجموعة الوثائق السياسيّة، ص159-160، وفي رواية أخرى لكيز بن عبد القيس.

يدلّ عليه قول محمّد في هذه الرسالة: «**والله ورسوله يشهد عليهم**»[95]. والملاحظ في هذا التركيب أنّ الخبر ورد جملة فعليّة، والأصل فيه أن يكون مفرداً، في حين جاء المبتدأ مركّباً عطفيّاً، وقد جاء الخبر على تلك الشاكلة للدلالة على مدار الحقيقة وزمانها، وهو محمول إخباري يؤكّد الشهادة ويثبتها لله ولرسوله، وعلى زمن هذه الرسالة، لأنّه وإن ختم بهذه العبارة، فهي إحالة في الحقيقة على البداية، لأنّ الأمر المشهود عليه في هذه الرسالة يتطلّب الاستمرار فيها، فالشهادة ليست على أمر قد انقضى وانتهى وولّى، بل على معاهدة بدأت وستستمرّ، طبقاً لما ورد من مضامين سياسيّة وماليّة ودينيّة في هذه الرسالة الموجّهة إلى الأكبر بن عبد القيس.

ولئن ذكر محمّد مختلف هذه الملفوظات التي أوردناها سابقاً في خواتيم رسائله، فإنّه أحياناً قد أسقط السلام من آخرها، والأمثلة في ذلك كثيرة، منها على سبيل التمثيل: رسالته إلى أهل هجر[96]، ورسالته إلى بني جنبة وهم يهود بمقنا وإلى أهل مقنا عامّة[97]، ورسالته إلى بني غاديّا[98]، ورسالته إلى بني عريض وهم قوم من يهود[99]، ومكاتيبه إلى السُّعير بن عدّاء[100]، وإلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير[101]، وغيرها كثير من الرسائل التي خلت من السلام والتحيّة، خاصّة إذا كانت موجّهة إلى المشركين واليهود والنصارى والمعارضين.

ولئن تلوّنت الخواتيم من حيث التراكيب والأسلوب والمحمولات اللغويّة المتعلقة بالرسائل المحمّدية، فإنّ هذا التلوّن وإن غاب أو غُيّب أحياناً من باب إقصاء الآخر أو تهميشه، فإنّه يدلّ على أنّ اللغة تبقى مرآة عاكسة لأيّ مجتمع من المجتمعات الإنسانيّة، وهي تعبير خارجيّ يترجم عن عقليّة معينة وبيئة اجتماعيّة مخصوصة، ونفسيّة ما تحياها أمّة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات، أو فرد من الناس يتحمّل مسؤوليّة تاريخيّة على نحو ما أقبل عليه محمّد في رسائله.

وبعد ذلك، من المفروض أن تُفضي هذه الخواتيم إلى تواريخ كتابة هذه الرسائل حسب ما هو معهود في تقاليد الكتابات الترسليّة، والعهود والالتزامات والمواثيق، وهو الأمر الذي «**استقرّ عليه حال كتّاب الزمان كتابة التاريخ في آخر الكتاب لكلّ حال، سواء كان المكتوب ولاية أو مكاتبة أو غير ذلك، ولعلّ الولايات**

95- لسان العرب، مادة (ش، هـ، د)، مج 4، ج24، ص2348 وما بعدها، يشهد، فهو شهيد، بمعنى أن يبيّن ما يعلم، وأن يخبر بما قد شاهده.
96- الطبقات الكبرى، ج4، ص238.
97- المصدر نفسه، ج1، ص239-240.
98- المصدر نفسه، ج1، ص241.
99- المصدر نفسه، ج1، ص241.
100- المصدر نفسه، ج1، ص242.
101- المصدر نفسه، ج1، ص244.

وما في معناها لم يقع الاختلاف في كتابتها في آخر المكتوب في زمن من الأزمان»[102]، أي أنّ التأريخ في الكتابات والمراسلات يعود إلى ما قبل الإسلام، ولعلّ ما نجده في بعض المواثيق والقصائد والكتابات والنقوش، يُحيلنا على أنّ النصوص ما قبل الإسلام كانت تؤرّخ بحكم الملوك، وبأيام الرؤساء وسادات القبائل وأرباب الأمم، وقد استعملوا جملة طرق في تأريخهم وتقويمهم للحوادث وتثبيت زمانها[103]. والذي نفهمه تاريخيّاً أنّ الأمم السالفة كانت «**تؤرّخ بالحوادث العظام وبملك الملوك، فكان التأريخ بهبوط آدم عليه السلام، ثمّ بمبعث نوح، ثمّ بالطوفان، ثمّ بنار إبراهيم عليه السلام**»[104]. ولعلّ هذا ممّا يدلّ على أنّ محمّداً قد يكون استفاد من هذا التراث الدّيني والإنساني، وحذا حذوه في التأريخ في مختلف مكاتيبه ورسائله.

والذي وقفنا عليه في مختلف المصادر التاريخيّة والأخبار والسُّنّة، أنّ الفُرس مثلاً أرّخوا بملوكهم واحداً بعد واحد، وأرّخ الروم بالملك إسكندر المقدوني، وأرّخت قريش بعام الفيل وبيوم الفجّار وببناء الكعبة وبحلف الفضول، واقتدى محمّد بذلك فأدرج التأريخ الهجري في رسائله[105]، ولعلّ هذا الاختيار هو موقف منه من المقاربات التأريخيّة التي سبقته عساه يؤسّس تفاضلاً وتميّزاً عن الأمم الأخرى، وقد ثبت كذلك أنّ محمّداً أرّخ بالهجرة حين كتب رسالته إلى نصارى نجران وأمر عليّاً بن أبي طالب أن يكتب فيها أنّه كتب لخمس من الهجرة[106]، مثلما أرّخ رسالة إلى بني زاكان من أهل قزوين في إيران في سبع خلون من محرّم[107]، وعهده للنصارى الذي كُتب بتاريخ الثالث من محرّم ثاني سني الهجرة[108]، وكذا الأمر في رسالته إلى العلاء بن الحضرمي ومن معه من المسلمين، وقد كتب هذا الكتاب لثلاث من ذي القعدة لأربع سنين مضت من مهاجر نبيّ الله إلّا شهرين[109].

لكنّ الذي وجب أن نشير إليه في هذا السياق التأريخي للرسائل النبويّة، أنّ هناك اضطراباً في الروايات التي تناولت تواريخ الرسائل المحمّديّة، فقد روى ابن سعد أنّ محمّداً لمّا رجع من الحديبية في ذي الحجّة

102- صبح الأعشى، ج6، ص262.

103- انظر: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص46.

104- صبح الأعشى، ج6، ص235. تتضارب الأقوال في ترجمة إبراهيم، يقول العهد القديم: إنّ تارح سمّى ابنه أبرام، «وَعِنْدَمَا بَلَغَ تَارَحُ السَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ أَنْجَبَ أَبْرَامَ». التكوين 26: 11. بينما يقول القرآن: إنّ آزر سمّى ابنه إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} [الأنعَام: 74].

105- انظر: ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز وتصحيحه، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط1، 1970م، ج7، ص268، فقد روى الحاكم في «الإكليل» عن طريق ابن جريج عن أبي سلمة عن أبي شهاب الزهري أنّ محمّداً لمّا قدم المدينة أمر بالتأريخ فكتب في ربيع الأوّل.

106- انظر: أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 1979م، ص74.

107- مجموعة الوثائق السياسيّة، ص569.

108- المصدر نفسه، ص563.

109- مجموعة الوثائق السياسيّة، ص576، ولعلّه انحصر التأريخ في الهجرة، لأنّ تاريخ المولد أو المبعث لا يخلو كلّ واحد منهما من النزاع في تعيين السنة، وأمّا تاريخ الوفاة، فقد وقع الإعراض عنه من المسلمين لما يحيل عليه من ذكرى سيئة وحزينة.

سنة ستّ أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتاباً، فخرج ستة نفر[110] في يوم واحد، وذلك في المحرّم سنة سبع[111]، أي أنّ الرسائل كانت عقب صلح الحديبيّة الذي كان في سنة ستّ من الهجرة النبويّة، وكان انطلاقهم في مطلع سنة سبع للهجرة.

ولئن وجدنا خيطاً ناظماً بين هذين التاريخين عند ابن إسحاق، فإنّ الطبري يرى أنّ الترسّل حدث في سنة ستّ للهجرة[112]، وفي رواية أخرى يذكر أنّ محمّداً كان «**قد فرّق رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاة إلى الله عزّ وجلّ فيما بين الحديبية ووفاته**»[113]، في حين يرى البلاذُري (ت 279هـ/892م) أنّ إرسالها كان في سنة سبع للهجرة «**وهو أثبت من قول من قال في سنة ستّ**»[114]، وكذا الأمر عند أبي الفداء[115] (ت 732هـ/1331م)، والجدير بالذكر أنّ الذهبي (ت 748هـ/1348م) يخالف كلّ هذه التواريخ، ويذكر أنّ هذه الرسائل أرسلت في العام الثامن للهجرة[116].

والذي نستخلصه من كلّ هذه الروايات أنّ هذه الرسائل لئن كُتبت حقّاً، أو مثلما أوهمنا مُنجزها بأنّها دُوّنت حقّاً، في فترة مبكّرة، فإنّ هذه الفكرة تبقى من المواضيع الموصولة بالبحث التاريخي أكثر منه الحضاري، ناهيك أنّ الاختلاف حاصل حول تأريخ هذه المكاتيب التي أرجعها البعض إلى العام الخامس أو السادس من الهجرة، والبعض الآخر أرجعها إلى العامين الثامن والتاسع من الهجرة، ويذهب شقّ ثالث إلى أنّها كُتبت من صُلح الحديبية إلى وفاة محمّد، ويكاد يجمع المؤرّخون على أنّ محمّداً أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء بعد صلح الحديبية، ولكن هناك من يجانب هذا القول على غرار ما ذهب إليه مونتغمري وات (Montgomery Watt) (1909-2006م) إذ يرى أنّ هذه الكتب والرسائل أرسلت قبل صلح الحديبية، ولكنّه لا يدعم رأيه بدليل تاريخي مقنع[117].

110- انظر: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص644، وهم حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وعمرو بن أميّة الضمري إلى النجاشي.

111- انظر: الطبقات الكبرى، ج1، ص222.

112- انظر: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص644.

113- المصدر نفسه، ج2، ص645.

114- البلاذُري (أحمد بن يحيى بن جابر) أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي وتقديمهما، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1996م، ج1، ص531.

115- انظر: المختصر في أخبار البشر، ج1، ص141.

116- انظر: الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 2003م، ج1، ص335.

117- لمزيد التوسع، انظر: Montgomery (William Watt), Muhammed, prophète et homme d'état, traduit de l'anglais par Odile Mayot, éd. Payot, Paris, 1980, p. 160.

والأقرب إلى المنطق، في رأينا، أنّ محمّداً قد بدأ بإرسال هذه الرسائل بعد صلح الحديبية بوقت غير طويل، وهو ما تؤكده المصادر المبكرة، أمّا فيما يخصّ تأريخ هذه الرسائل، فالرأي، عندنا، أنّ محمّداً لو كان يؤرّخ بالتاريخ الهجري أو غيره، لوقفنا على ذلك من خلال رسائله وكتبه إلى الملوك والأباطرة والأمراء ومختلف الجهات، وبتتبعنا لرسائله لم نعثر على شيء من ذلك يذكر إلّا النزر القليل، ولعلّ خلوّ الرسائل النبويّة من التأريخ يُعدّ أمراً طبيعيّاً، لأنّ المسلمين لم يبدؤوا بكتابة تاريخهم إلّا في عهد عمر بن الخطاب، وذلك سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة من الهجرة[118]، أو لعلّ مردّ ذلك إلى استخفافهم وتهاونهم بأهميّة الوقت وقيمة الزمن، أو لانشغالهم بالفتح تارة وبالغزو طوراً، فلم يُعيروا اهتماماً لذلك، أو أنّ هذه المراسلات دُوّنت من جهات مختلفة وفي أوقات متباينة ونسبت إلى محمّد مجرّد انتساب لا غير، ومهما يكن الأمر، فإنّنا وقفنا على مقدّمات ومتون وخواتيم هذه الرسائل المحمّديّة، وكيف انخرطت في بناء المكاتيب النبويّة، وسنعمل لاحقاً على دراسة مبحث مهمّ موصول بالرسالة هو الختم.

II- الختم:

بناء على ما تقدّم استخلصنا أنّ عدد الرسائل المحمّديّة ليس عدداً مستقرّاً وثابتاً، بل هو عدد متغير تغيّراً يصل إلى درجة التناقض أحياناً، سواء كان ذلك بين القدماء أو بين المحدثين والمعاصرين، ووقفنا على أنّ هيكل الرسالة يتشكّل من مقدّمة ومتن وخاتمة تُشفع في أغلب رسائل محمّد بما يُسمّى الختم، وهو عبارة عن توقيع على وثيقة أو مستند أو كتاب أو رسالة، بمعنى هو إمضاء المرسل على المخطوط الذي خطّه. إنّ ختم الوثائق هو عمليّة وضع خاتم أو طابع على الوثيقة لبيان مصدرها وملكيتها ومصداقيتها ومرسلها، وهو ما دأب على فعله محمّد، والتزم به في بعض مراسلاته ومكاتيبه إلى المرسل إليهم سواء أكان داخل الجزيرة العربيّة أم خارجها، على غرار ما وقفنا عليه في بعض مكاتيبه التي شُفعت في خواتيمها بعلامة ختم مثل رسالته إلى النجاشي[119]، ورسالته إلى هرقل[120]، وإلى المقوقس[121]، وإلى كسرى عظيم فارس[122]، وإلى المنذر بن ساوى[123]، وإلى هوذة بن علي[124]، وإلى جيفر وعبد ابني الجلندى شيخي عُمان[125]، ورسالته إلى

118- انظر: ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل) البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الرياض، ط1، 1997م، ج4، ص512.

119- انظر: مجموعة الوثائق السياسيّة، ص101-103.

120- المصدر نفسه، ص109-110.

121- المصدر نفسه، ص135-136.

122- المصدر نفسه، ص142.

123- المصدر نفسه، ص145-146.

124- المصدر نفسه، ص156-157.

125- المصدر نفسه، ص161.

الأحمر بن معاوية وشعبل بن أحمر[126]، وكتابه إلى الأكيدر وأهل دومة الجندل[127]، ورسالته إلى بني زاكان من أهل قزوين في إيران[128]، وعهده للنصارى[129].

والذي وقفنا عليه كذلك أنّ أغلب المصادر من كتب السنن، والأخبار النبويّة، والروايات، وكتب التفسير، وكتب المغازي والسير، وكتب التاريخ والأنساب، أثبتت تواتر خبر استعمال محمّد الخاتم، على نحو ما رواه عبد الله بن عمر قال: «**اتّخذ رسول الله خاتماً من وَرِق**[130]، **وكان في يده. ثمّ كان بعدُ في يد أبي بكر، ثمّ كان بعدُ في يد عمر، ثمّ كان بعدُ في يد عثمان، حتى وقع بعدُ في بئر أريس، نقشُه: محمّد، رسول، الله**»[131].

والجدير بالذكر أنّ النصوص، وإن تواترت في استعمال الختم في آخر الرسائل، فإنّها تناقضت أحياناً في تحديد وضع الخاتم في اليد اليمنى أو اليسرى، فعن أنس أنّ محمّداً كان «**يتختّم في يمينه، ويجعل فصّه في باطن كفّه**»[132]، وفي رواية أخرى عنه قال: «**كان خاتم النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه، وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى**»[133]، ويُثبت أنس بن مالك في رواية ثالثة، ماهية النصّ الذي خُطّ في الخاتم وهو يختلف عن روايات أخرى، يقول: «**كان فصّ خاتم النبيّ حبشيّاً، وكان مكتوباً عليه: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، لا إله إلّا الله سطر، وتحته سطر، ورسول الله سطر**»[134].

وتذهب بعض المرويّات إلى أنّه لمّا رجع محمّد من الحديبية في ذي الحجّة سنة ستّ الهجريّة، أرسل الرسل إلى الأباطرة والملوك والأمراء والزعماء والقادة يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كُتباً، فقيل: يا رسول الله، إنّ الملوك لا يقرؤون كتاباً إلّا مختوماً. فاتّخذ محمّد يومئذ خاتماً من فضّة، فصّه منه، نقشُه

126- المصدر نفسه، ص254.

127- المصدر نفسه، ص293-294.

128- المصدر نفسه، ص568.

129- المصدر نفسه، ص563.

130- الوَرِقُ: الفضّة.

131- فتح الباري، نصّ متفق عليه، كتاب اللباس، باب نقش الخاتم، حديث 5873، ج10، ص324، وقد تواتر هذا النصّ في العديد من المصادر منها: طبقات ابن سعد، ج1، ص406، فتح الباري، كتاب الجهاد والسير، باب دعوة اليهود والنصارى، حديث 2938، ج6، ص108، إعلام السائلين، ص28-29، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج1، ص119-120، كتاب الأوائل، ص101، الترمذي (محمّد بن عيسى بن سورة) صحيح سنن الترمذي، تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2000م، كتاب اللباس، حديث 744، ج2، ص275، الوكيل (مختار) سفراء النبي عليه السلام وكتابه ورسائله، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط1، 1978م، ص9-10، الأعظمي (محمّد مصطفى) كُتّاب النبيّ ص، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1978م، ص20-21.

132- فتح الباري، باب من جعل فصّ الخاتم في بطن كفّه، حديث 5876، ج10، ص325، وكذلك الترمذي، حديث 1744، ج2، ص275.

133- صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، ج14، ص71-72، والطبقات الكبرى، ج1، ص410.

134- فتح الباري، كتاب اللباس باب هل يجعل نقش الخاتم ثلاثة أسطر؟ حديث 5878، ج10، ص328.

ثلاثة أسطر: محمّد، رسول، الله، وختم به الكتب إلى الملوك[135]، وكانت أسطر الخاتم الثلاثة: محمّد في سطر، ورسول في سطر، والله في سطر[136]. ما الذي يمكن أن نستشفّه من هذه المرويّات التي سنتعرّض إليها تباعاً؟

لئن تواتر ذكر الخاتم، فإنّه وقع الاختلاف في موضعه، وفي ماهيّة متنه، فتكون هذه المرويّات إمّا اخترقها الوضع والزيادة، أو التحريف، أو النقص والكذب والتلفيق، فتكون موضوعة، وهذا ليس بالغريب في السنّة النبويّة وما رُوي عن محمّد بصورة عامّة، أو أنّ محمّداً كان يملك أكثر من خاتم، وكلّ خاتم يحمل نصّاً معيناً، وكان يلبسه أحياناً في يده اليمنى وأحياناً أخرى في يده اليسرى، ويُوظف هذا الختم وفق مقام المرسل إليه، وحسب خصوصيّات الجهة المراسلة، وطبيعة الموضوع المبحوث فيه، بل أحياناً يتغافل أو يُسقط الختم نهائيّاً، باعتبار أنّنا وقفنا على أنّ أغلب رسائله لم يمهرها بختمه.

وقد تواترت النصوص في إثبات الخاتم من أجل الختم، إلّا أنّ هذا التواتر يعكس الكثير من القراءات والفهوم، من بينها ما رواه ابن عساكر أنّ محمّداً دعا عليّاً بن أبي طالب فقال: «**انقش خاتمي هذا، وهو فضّة كلّه، (محمّد بن عبد الله) فأتى على النقّاش فقال: انقش هذا النقش، فقال: أفعل، فشارطه عليه، فوجد**[137] **الله قد قلب يده فنقش (محمّد رسول الله)، فقال علي: ما بهذا أمرتك، قال: فإنّ الله قد قلب يدي، والله لقد كتبته، وما أعقل. فقال: صدقت، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فتبسّم فقال: أنا رسول الله**»[138].

والذي نفهمه من هذا الشاهد، أنّ النقّاش لم يلتزم بما أُمر به، وبما اشترطه عليه عليّ بن أبي طالب، فلم يكن أميناً، وهذا يخالف السنن الإسلاميّة وقواعد الالتزام بشروط العهد، ثم كأنّ هناك من عارض هذه الصيغة في الخاتم، وأنّ النقّاش برّر اختيار الصيغة المتواترة بأمر من الله، بل قد خطّها وكأنّه في اللاوعي دون أن يعلم، «**والله لقد كتبته وما أعقل**»، ثمّ إنّ علياً بن أبي طالب صدّقه دون أن يسمع رأي النبيّ في ذلك، وأنّ محمّداً استحسن الأمر وأقرّه، بل أسعده هذا الاختيار وهذه الصيغة الجديدة، وقد تجلّى ذلك من خلال موقفه «**فتبسّم فقال: أنا رسول الله**».

لقد اكتسى هذا الختم بُعداً مقدّساً، فخرج من صيغة **محمّد بن عبد الله** إلى صيغة **محمّد رسول الله**، وفي تقديرنا أنّ الرواية تتنزّل في إطار المنافحة الدّينيّة وتفخيم سيرة محمّد، حتّى وإن كان ذلك على حساب بُعدها

135- انظر: الطبقات الكبرى، ج1، ص222.

136- انظر: إعلام السائلين، ص28، زاد المعاد، ص119-120، الطبقات الكبرى، ج1، ص408-409.

137- أي النقّاش.

138- السيوطي (جلال الدّين عبد الرحمن) الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، تحقيق محمّد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، مصر، ط1، 1968م، ج2، ص334.

الخرافي والأسطوري، وحتى إن كانت الصيغة المقترحة لم يكن مصدرها محمّداً بل النقّاش، الذي أصبح يتلقّى الوحي عوضاً عن محمّد فيما يخصّ متن هذه الصيغة التي تخالف ما اقترحه محمّد أصالة. والسؤال الذي يُطرح هو: كيف يمكن أن نفسّر تصرّف النقّاش في صيغة متن هذا الختم؟ هل من حقّ النقّاش أن يحسم الأمر في إقرار هذه الصيغة حتى تصبح أمراً واقعاً؟ إلى أيّ حدّ يمكن أن نطمئنّ إلى هذه الروايات الموصولة بإشكاليّة الختم؟ ثمّ هل هذا الختم الذي نجده في بعض المراسلات هو ختم النقّاش أو ختم محمّد؟ وإذا وقع تحريف صيغة الختم، ألا يفضي هذا إلى جواز التشكيك في نصّ الترسّل في حدّ ذاته؟

يعكس هذا الخاتم بُعداً سياسيّاً، يتمثّل في أنّه يعكس اسم مؤسّس هذه الدولة الوليدة، فالختم إذاً هو علامة حُكم وسلطة، مثلما يشي ببُعد ديني، فما نُقش عليه وما خُطّ في صيغته يُحيل على المكانة الدّينيّة لمحمّد، باعتباره نبيّاً ورسولاً ومبعوثاً من الله إلى الناس، لذلك كان خاتمه على ذلك النحو يمهر به رسائله ومكاتيبه إلى الملوك والأمراء والقادة، يُعلمهم بقيام هذه الدولة ذات المرجعيّة الدّينيّة الجديدة، المستمدّة من الاعتراف به رسولاً إلهيّاً، مطالباً إيّاهم بالاعتراف بقيام هذه الدولة، والاعتراف بمكانته الدّينيّة. لذلك اتّسمت بعض رسائله باستخدام الختم النبوي، وقد تبدّى في أسفلها جليّاً بيضوي الشكل، يحمل عبارة محمّد، ثمّ فوقها كلمة رسول، ثمّ فوقها الله، ليكون في أعلى الجملة. وقد عكس هذا الختم الصفة الرسميّة لمن أرسلها باعتباره يمثّل سلطة دينيّة وسياسيّة.

إنّ الاهتمام باللحظة التاريخيّة التي نشأ في إطارها الختم، لم تكن معزولة في الرواية التقليديّة التي يرويها المصنّفون والإخباريّون، والتي تشير إلى أنّ الخاتم هو عبارة عن رسم، «**كانت الفرس تجري أمرها عليه، لأنّ الملك منهم إذا أمر بأمر، وقّعه صاحب التوقيع بين يديه، وأثبت في تذكرة عنده [...] ويختم بحضرة الملك أو بحضرة أوثق الناس عنده**»[139].

ولعلّ الذي يمكن أن نفهمه من هذه الرواية أنّ محمّداً قد استعمل خاتماً، لأنّ الفرس قبل الإسلام وقبل بعثته كانت لهم هذه التقاليد في التوثيق والتوقيع والختم، ثمّ ما عُرف عن الفرس أنّهم لا يعترفون برسالة غير ممهورة بخاتم رسمي لمرسلها، ومن ثمّة أمر محمّد بصنع خاتم من الفضّة، نُقش عليه في الجزء الأعلى اسم الله، والأوسط رسول، والأسفل محمّد، وثبت فيما رواه البخاري والترمذي وغيرهما، أنّه كان لا يستغني عن الختم به في الكتب إلى ملوك البلدان، وأجوبة العمّال، وقوّاد السرايا.

139- ابن جعفر (قدامة) الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، دراسة مصطفى الحياري وتحقيقه، الجامعة الأردنيّة، الأردن، ط1، 1986م، ص76.

وانفرد القلقشندي في (**صبح الأعشى**) مثلاً، بإرجاع هذه النشأة إلى العصر النبوي الذي عرف ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل، قال: «**اعلم أنّ هذا الديوان أوّل ديوان وُضع في الإسلام، وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ويكاتبونه، وكتب إلى من قرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكُتبه**»[140]، ومن المعلوم جدّاً أنّ من خدمات هذا الديوان إلى جانب الكتابة، هو الختم والتوقيع الذي ثبت في بعض الرسائل التي أرسلها محمّد إلى جهات مختلفة.

لعلّ هذه البدايات كان لها أثرها فيما ظهر من بعد، من تطوّر ونضج في هذا المجال التراسلي والبريدي، الموصول بالتدوين والإرسال والتوثيق والتوقيع واختيار المبعوثين، فقد أفرزت في العصر الأموي ستة دواوين رئيسة مقرّها دمشق عاصمة الخلافة وهي: ديوان الجُند، وبيت المال، وديوان الرسائل، وديوان البريد، وديوان الخاتم، وديوان الخراج[141].

يبدو أنّ خاتم محمّد كان يحظى بعناية فائقة واهتمام بالغ، ولعلّ ذلك يتجلّى من خلال ما كان سائداً وقتئذٍ، إذ كان لخاتمه حافظ يُطلق عليه اسم صاحب الخاتم، ويحفظه عندما يخلعه محمّد، وتذهب بعض الروايات إلى أنّ صاحب خاتمه هو مُعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي[142]، في حين تذهب بعض المرويّات الأخرى إلى أنّه كان يعهد بخاتمه إلى حنظلة بن الربيع بن صيفي[143]، ولعلّ محمّداً يعهد بحفظ خاتمه تارة إلى مُعيقيب، وطوراً إلى حنظلة، أو لعلّ مُعيقيب هو المسؤول الأوّل عن التعهّد بحفظ خاتم محمّد، وفي حال الغياب لأيّ سبب من الأسباب فإنّ النيابة تؤول إلى حنظلة.

وقد تواصل الحفاظ على هذا الخاتم حتى بعد وفاة محمّد، وذلك من خلال الدعوة إلى عدم تقليده، أو أن ينقش أحد على نقشه، مثلما نُهي أن يتكنّى أحد بكنيته فيقال له مثلاً: صاحب خاتم النبيّ، وكأنّ الخاتم لم يزل في يد محمّد، ثمّ فيما بعد كان في يد أبي بكر الصديق، ثمّ عمر بن الخطاب، ثمّ في يد عثمان بن عفان، فلمّا كان في السنة السادسة من خلافته سقط من يده في بئر أريس[144]، فنزحت البئر، وأُخرج منها أكوام من طين،

140- صبح الأعشى، ج1، ص91.

141- انظر: تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص210 وما بعدها.

142- انظر: ابن الأثير (عز الدّين بن علي بن محمّد) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي محمّد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، (د.ت)، ج5، ص231-232، وانظر كذلك، ابن عبد البرّ (أبو عمر الحافظ يوسف القرطبي) الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2006م، باب الإفراد في حرف الميم، ج2، ص281-282. مُعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي: مولى سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس، أسلم قديماً بمكة، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثمّ هاجر إلى المدينة، وكان على خاتم النبي، واستعمله عمر بن الخطاب خازناً على بيت المال، وكان من كتّاب محمّد، وتوفي في آخر أيام عثمان بن عفّان.

143- انظر: سفراء النبي عليه السلام وكتّابه ورسائله، ص30.

144- انظر: الحموي (ياقوت شهاب الدّين بن عبد الله) معجم البلدان، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 1977م، ج1، ص298.

إلّا أنّ عثمان ومن معه لم يعثروا عليه[145]، ولعلّ عثمان تجرّأ فأمر بصنع خاتم مشابه استخدمه حتى تُوفّي، واستخدمه أيضاً خليفته عليّ بن أبي طالب اقتداء بما كان يفعله محمّد.

وتذهب بعض المرويّات إلى أنّ الذي أتلف الخاتم، أو أسقطه في البئر، هو مُعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، والرجل كان من كتّاب محمّد، بل كان على هذا الخاتم الذي يختم به بأمر من محمّد، وهو الذي يسقط من يده أيام عثمان بن عفان، ويبدو أنّ عثمان تأسيّاً بما كان يفعله محمّد استعمله على الخاتم لختم الرسائل والكُتب والوثائق، فسقط الخاتم من يده، أو من يد عثمان، وهو الأشهر الذي عليه أكثر المصادر المعتمدة[146].

إذا جمعنا ما سبق من مضامين وأفكار، أمكننا القول: إنّ إشكاليّة الخاتم والختم والتوقيع فيها نظر، سواء من حيث صيغة المتن أو صناعة الخاتم، أو من حيث علاقة محمّد بهذا الخاتم وتاريخيته، أو من حيث شكله وحجمه، فإذا كان الخاتم ما يختم به، وهو حلقة ذات فصّ تلبس في الإصبع، فهذه الحلقة قد تأخذ عدّة أشكال، فتكون على هيئة كرة من المعدن على غرار الذهب أو الفضّة أو الرصاص، وقد يكون الشكل شكلاً بيضويّاً أو دائريّاً، وقد ارتبط الاسم تاريخيّاً بوثائق الباباوات لوضع هذا الختم على وثائقهم، حتى لقد سُمّيت وثائق البابا نفسها بذلك الاسم «بولات» (BULLE) بالفرنسيّة، و(BULI) باللغة الإنجليزيّة[147].

وقد نجد تقاطعاً بين هذا البُعد التاريخي في شكل الخاتم، وبين ما عثرنا عليه من مرويّات تراثيّة، على نحو ما ذكره عمرو بن العاص حين قدم من الحبشة على رسول الله، فقال له محمّد: «**ما هذا الخاتم في يدك يا عمرو؟ قال: هذه حلقة يا رسول الله، فأخذه رسول الله فتختّمه، فكان في يده حتى قُبض**»[148]، وكان خاتم محمّد منقوشاً، وكتابته مقلوبة، ليطبع على الاستقامة[149]، فقد حُفرت الأحرف: محمّد، رسول، الله، على فصّ الخاتم، وعندما يختم به فإنّ الحبر يُغطي الدائرة، ما عدا الأحرف المحفورة، فتظهر بهذا الختم بيضاء تُقرأ بوضوح ويُسر؛ ممّا يدلّ على أنّ الصورة الموجودة لخاتم محمّد واضحة الكتابة، دقيقة الأحرف، متناسقة الوضع، متساوية الأبعاد تقريباً، لا يُخطئ من يقرؤها.

145- انظر: الطبقات الكبرى، ج1، ص406-407، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج1، ص785-786، البداية والنهاية، ج8، ص362.

146- انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج5، ص232.

147- انظر: ميلاد (سلوى علي) قاموس مصطلحات الوثائق والأرشيف، مراجعة توفيق إسكندر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، ط1، 1982م، ص28.

148- الطبقات الكبرى، ج1، ص408.

149- انظر: البداية والنهاية، ج8، ص365.

إنّ هذه التقنية في صناعة الختم تدلّ على الحرفيّة والمهنيّة العالية في صناعة الخواتم، وفي التمكّن من فنّ النقش والزخرفة والحفر والخطّ والتحبير والختم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجعلنا نتساءل: هل يمكن أن نسلّم بأنّ محمّداً لا يُحسن القراءة والكتابة، وهو الأميّ حسب التفاسير التراثيّة والمباحث الفقهيّة المتواترة، لذلك فإنّه يُمضي ويختم على المواثيق والعهود والعقود والالتزامات والرسائل الموجّهة داخل شبه الجزيرة العربيّة أو خارجها دون أن يعلم ما ورد في متونها؟ كيف نقبل أنّ غيره يُتقن الكتابة والقراءة والتوقيع والتوثيق والخطّ، وهو يجهل هذه الأصول، وهو الذي قال له الوحي: اقرأ؟

خاتمة الفصل:

إنّ الذي نخرج به من هذا الفصل هو أنّ هيكل الرسالة يتشكّل في الغالب من فاتحة وهي عبارة عن عتبة من عتبات النصّ، ولئن توسّل محمّد من خلالها بالسلم والسلام وأداء التحيّة والدعاء والحمد، ومحاولة كسب ودّ الآخرين، فإنّ البعض من مقدّمات رسائله لم تخلُ من أسلوب يُحيل على الاستهزاء، والاستصغار، والسخرية، على غرار رسالة مسلمة بن حبيب الذي نعتته المصادر الإسلاميّة بالكذّاب، وأدرجت صيغة التصغير التي تُحيل على الاحتقار[150]، والغريب في الأمر أنّ المصنّفات التاريخيّة تذكر أنّ مسلمة أرسل كتاباً إلى محمّد وأدرج فيه الأسلوب ذاته الذي يُحيل على السخرية، وهذا الإقرار بتحقير الذات، والحطّ من القيمة من قبل مسلمة ذاته، لا يمكن أن يستقيم[151].

يكشف هذا الشكل للرسائل المحمّديّة عن فكرة رئيسة، هي عبارة عن مدار تواصل وجدل وتفاوض بين الباثّ والمتقبّل، وتعدّ الفكرة الدّينيّة عادة الأطروحة، وهي مدار الدعم أو التوسّع أو الدحض، مثلما قد تتضمّن أحياناً الفكرة المحوريّة التي ستنعقد عليها المراسلة، ثمّ يترتّب على هذه الفكرة المحوريّة جملة من الأفكار والقضايا الفرعيّة والجانبيّة التي هي سليلة الفكرة الرئيسة، وقد تبنّى محمّد العديد من الأمثلة والشواهد والحجج والأدلة، من أجل بناء ما يريد أن يصل إليه، وما ينشد تحقيقه عمليّاً. ويتوّج محمّد هذا المتن بخاتمة تتساوق عادة مع المتن، ومع الجهة الموجّهة إليها، ويمهر كلّ ذلك بختم يحضر حيناً، ويغيب أحياناً أخرى.

150- انظر: الطبقات الكبرى، رسالة محمّد إلى مسيلمة، ج2، ص667.

151- المصدر نفسه، رسالة مسيلمة إلى محمّد، ج2، ص666.

إنّ دارس جانب الحجم في الرسائل المحمّديّة يمكنه أن يقف على حقيقة لا يمكن إنكارها، تتمثّل في تفاوت حجم هذه المراسلات، ذلك أنّ البعض منها يتّسم بالقصر[152]، والبعض الآخر بالطول[153]، والبعض الآخر متوسّط الحجم[154]، وهذا التباين في الحجم يتساوق مع تنوّع المضامين، بحيث يرتبط حجم الرسالة بالمقام، والحالة النفسيّة لمحمّد، ونوعيّة الموضوع المبحوث فيه، وبشكل المقدّمة، وكمّ المتن، ونوعيّة الخاتمة، وإشكاليّة الختم وفحواه، وذكاء الواضع وفطنته.

إنّ بعض الرسائل قصيرة جدّاً إلى درجة أنّها لا تتجاوز جملة أو سطراً[155]، وبعضها يتركّب من فقرات لا تتجاوز إحداها بضعة أسطر[156]، بينما قد نقف على بعض المراسلات التي تتجاوز الصفحات[157]، على أنّ هذا التفاوت في الحجم، وإن كان نسبيّاً، فإنّه يدعو إلى التساؤل عن سرّ قصر بعض الرسائل، والطول النسبي في البعض الآخر، وقد يُعزى ذلك إلى عدّة أسباب، لعلّ من بينها التركيز على الأساسي والرئيس والمهمّ، واجتناب الثانوي والجزئي والهامشي والتفصيل.

ولعلّ الحديث عن الجانب الدّيني، وخاصّة العقدي منه، كان من أسباب التوسّع، يضاف إلى ذلك الحديث عن الجانب المالي، على غرار الخراج، والزكاة، وأنواع الجزية وأهل الذمّة، أو ما كان موصولاً بالمجال العسكري، على نحو الحديث عن الحروب والغزوات والسرايا وفنون القتال وبنود الصلح والمعاهدات والاتفاقات والعقود والمواثيق، غير أنّنا لا نستبعد من كلّ هذه الآراء والمقدّمات التي ذكرناها أن تكون هذه المراسلات موضوعة، لذلك كان الوضع من الأسباب المباشرة التي أدّت إلى الطول وكثافة الحجم، ومهما يكن من أمر، فإنّنا نعتقد أنّ هذه المياسم أعطت طابعاً خاصّاً يميّز رسائل محمّد من غيرها من الرسائل، من حيث حجمها، وبنيتها.

152- انظر: الطبقات الكبرى، رسالة محمّد إلى بني الجُرمز بن ربيعة، ج1، ص234.

153- المصدر نفسه، رسالته إلى بني جنبة وهم يهود بمقنا، ج1، ص239-240.

154- المصدر نفسه، رسالته إلى بني أسد، ج1، ص233.

155- انظر: إعلام السائلين، رسالته إلى جهينة، ص86.

156- المصدر نفسه، رسالته إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني، ص106-107.

157- المصدر نفسه، رسالته إلى الحارث بن عبد كلال الحميري، ص118 إلى 121، وكذلك كتابه إلى عمرو بن حزم الأنصاري، ص138 إلى 141.

لائحة المصادر والمراجع:

1 ـ المصادر:

- الطبري (أبو جعفر محمّد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة-مصر،ط2، 1967م.

2 ـ المراجع:

ـ المراجع العربيّة والمترجمة:

- ابن الأثير (عزّ الدين بن علي بن محمّد) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي محمّد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط1، (د.ت).

- ابن جعفر (قدامة) الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، دراسة مصطفى الحياري وتحقيقه، الجامعة الأردنيّة، الأردن، ط1، 1986م.

- ابن حجر (الحافظ أحمد بن علي العسقلاني): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز وتصحيحه، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط1، 1970م.

- ابن الحجّاج (أبو الحسين مسلم) صحيح مسلم، شرح النووي، المطبعة المصريّة، الأزهر، القاهرة 1930م.

- ابن سلّام (أبو عبيد القاسم) كتاب الأموال، تقديم محمّد عمارة وتحقيقه، دار الشروق، بيروت-لبنان، ط1، 1989م.

- ابن طولون (محمّد الدمشقي) إعلام السائلين عن كتب سيّد المرسلين، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومراجعة محمود الأرناؤوط، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط2، 1987م.

- ابن عبد البرّ (أبو عمر الحافظ يوسف القرطبي): الاستيعاب في أسماء الأصحاب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2006م.

- ابن كثير (أبو الفداء عماد الدّين إسماعيل): البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الرياض، ط1، 1997م.

- أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 1979م.

- الأسد (ناصر الدّين) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1962م.

- الأصفهاني (أبو الفرج) كتاب الأغاني، إشراف محمّد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط1، 1950م.

- بارت (رولان) التحليل النصّي، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق-سورية، ط1، 2009م.

- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) الجامع الصحيح، تحقيق محبّ الدين الخطيب، ومحمّد فؤاد عبد الباقي، وقصي محبّ الدين الخطيب، المطبعة السلفيّة، القاهرة-مصر، ط1، 1980م.

- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي وتقديمهما، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 1996م.

- الجبوري (يحيى وهيب) الخطّ والكتابة في الحضارة العربيّة، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1994م.

- الحلبي (علي برهان الدّين) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروفة بالسيرة الحلبيّة، المطبعة الأزهريّة، القاهرة-مصر، ط3، 1932م.

- حميد الله (محمّد)، مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت-لبنان، ط5، 1985م.

- خطّاب (محمود شيت) سفراء النبيّ، دار الأندلس الخضراء، جدّة، ومؤسّسة الريّان، بيروت-لبنان، ط1، 1996م.

- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 2003م.

- الذييب (سليمان بن عبد الرحمن) نقوش الحجر النبطيّة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنيّة، الرياض، ط1، 1998م.

- الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر) : الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1986م.

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، تحقيق محمّد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، مصر، ط1، 1968م.

- العسكري (أبو هلال) الأوائل، تحقيق محمّد السيّد الوكيل وتعليقه، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلاميّة، طنطا-مصر، ط1، 1987م.

- علي (جواد) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط2، 1993م.

- القرآن الكريم، دار ابن كثير، دمشق-سورية، ط3، 1984م.

- القرطاجنّي (حازم) منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة وتقديمه، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط3، 1986م.

- مانغويل (ألبرتو) تاريخ القراءة، ترجمة سامي شمعون، دار الساقي، بيروت-لبنان، ط1، 2001م.

- المتقي الهندي (علاء الدّين علي) كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق صفوة السقا وبكري الحيّاني، مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط5، 1985م.

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمّد محيي الدّين الخطيب، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط5، 1973م.

- الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوي) أسباب النزول، تحقيق عبد الله المنشاوي، دار المنار، القاهرة-مصر، ط1، 2001م.

- المعاجم والموسوعات:

- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين) لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمّد أحمد حسب الله وهاشم محمّد الشاذلي، دار المعارف القاهرة-مصر، ط1، (د.ت).

- الحموي (ياقوت شهاب الدين بن عبد الله) معجم البلدان، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 1977م.

- الزركلي (خير الدّين) الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط15، 2002م.

- ميلاد (سلوى علي) قاموس مصطلحات الوثائق والأرشيف، مراجعة توفيق إسكندر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، ط1، 1982م.

- المراجع الأعجميّة:

- Foucault (Michel): L’archéologie du savoir, Bibliothèque des sciences humaines, Gallimard, Paris, 1969.

- Montgomery (William Watt), Muhammed prophète et homme d’état, traduit de l’anglais par Odile Mayot, éd. Payot, Paris, 1980.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019